حـــــور

" مجموعة قصصية "

إيمـــــان سعـــد

" مجموعة قصصية "
جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني محفوظة للناشر.
روايــة: حــور " مجموعة قصصية ".

الكاتبة: إيمان سعد.

الطبعة الأولى: يناير 2017

رقم الإيداع: 2017 / 1529

الناشــر:

"دار أدباء 2000 للنشر والتوزيع"

المدير العام: **منة عامر.** Mobile: 01099654718

E.mail: **Odabaa2000@gmail.com**

Website: **http://entashaaer.wix.com/odabaa2000**

Facebook: **https://www.facebook.com/Odabaa2000**

تصميم الغلاف: **محمد علي.**

تصحيح لغوي: **أحمد شوقي.**

جميع الحقوق @ 2017 محفوظة للناشر

"دار أدباء 2000 للنشر و التوزيع"

يمنع منعاً باتاً بدون إذن خطي معتمد من الناشر:-

نسخ أو إستعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيهاالتسجيل الفوتوجرافي و التسجيل على أي أشرطة أو أقراص صلبة أو مرنة مقروءة أو النشر عبر الإنترنت أو أي برنامج إلكتروني أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها أدوات حفظ المعلومات و إسترجاعها.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **"دار أدباء 2000 للنشر و التوزيع".**

إهـــــداء

إلى تلك الليالي التي لا تنتهي بأنينها و أوجاعها

إلى كل روح معذبة تشتاق لزوال همها

و شجونها.

إليك أيها الصبح

الذي تباطأ في الوصول إلينا

بكل الحب والشوق المنتظر .....

إيمـــان سعـــد

01"

" غدر ذات ليلة "

أطلق يده لعنان السماء ظنًّا منه أن النجوم ستبتهج بملامستِها ، إنها اللآلئ التي لم تصل لها يد ولم تقع تحت وطأة آدمي بعد.

كيف لها أن تفكر في هذه اليد الممتدة و لو قليلًا ؟ فحتمًا ستنهار اليد و تتراخى مستسلمة للأقدار.

عندما يئس من مجاراة تلك النجوم ، نظر نظرة عابرة على القمر، تخيل مع نفسه و هو مُمدد على تراب الطريق المُبَلّل بالندى.

تخيّل وجود كهف عميق كبير الحجم من يدخله لا يخرج منه أبدًا.

ألهذا الحد يتسع الكهف لابتلاع جميع كائناته المخيفة والمتوارية عن العيون ؟ كيف هو شكلها ؟ تكوينها ؟ أحقًّا حياتنا على الأرضِ احدى الحيوات الموجودة داخل الكون ؟

إن خالق الأرض بأسرارها و خباياها و أشجارها فارعة الطول و غاباتها ، حيواناتها و طيورها ، هو بذاته من وجد النجوم المتلألئة فوقي و على امتداد بصري ، يا للهول ، ما هذا ؟ إنه شهاب يخترق الجو الهادئ يتحول إلى كتلة من الجحيم ، ينتظر هو الآخر فرصة الاقتراب من أحد شياطين الجن لحرقه ، أحقًّا كان هذا الشيطان يسترق السمع ؟ أيعرف جرمه و عقابه ؟ بل و الأدهى يصر على تكرار الأمر بالاتفاق مع بني جنسه.

دارت جميع الأفكار برأسه دفعة واحدة ، تتلاحق و تتقاذف الواحدة تلو الأخرى كأنهم في سباق مفتوح لا نهاية له.

إني لأشعر بالحزن على تمددي ها هنا على الثرى وسط الضفادع والقوارض ، لا أستطيع النهوض لاستكمال طريقي فقواي خارت لم يبق لها وجود حتى أمل الوصول لنهاية الطريق لم ينجز بعد ،

لقد ضللت الطريق و فاتني رفاقي ، حتى الفتاة التي عشقتها و لم أحن لغيرها تركتني و ذهبت مع صديق ، أيستحق أن يطلق عليه لقب الصديق ؟ لا أعرف ، لعلها تزوجته أو تركته و رحلت مع غيره كما فعلت معي ، واحسرتاه ، حتى المعاني الجميلة لم يعد لها وجود.

أنا الآن في غابة من الوحشة و الضياع بين تأدية واجبي لوطني و حراسة أرضه و بين ما تركته خلفي ، انتظرت قدري و لم ينتظرني ، انتظرت قافلة الحنين لكنها رحلت مواربة الأبواب حتى دنوت منها فأغلقتها بوجهي شر إغلاق ، لعلني سكرت دون احتساء أم ذبت في ضوء النجوم الذي لولاه لكان الكون كستارة سوداء تشبه لياليا المؤلمة ، أأنا مخمور أم ماذا ؟

عليّ أن أنهض الآن فقد حان وقت عودتي و تبديل الحراسة على المكان، و لابد أن عزّام مُقْبِل لاستلام الحراسة ، أيها الوجع القابع بداخلي ألا ترحل لحظة ؟ ألا تتركني أستمتع ولو قليلًا أم أنك تُصِر على قهري بكل السبل ؟ حتى عملي الآن في وحدتي العسكرية يحتاج إلى الصبر و العزيمة و التيقُّظ دائمًا.

ربما ذات يوم ستأتي الراحة من حيث لا أدري.

أقبل عزام على فؤاد ، فقد حان وقت عودة فؤاد لثكنته و تسليم الحراسة لعزام ، حقًّا إن عزام يستحق عن جدارة اسمه ولقبه ، وحش كاسر ، حاد النظر خصوصًا في نوباتِ الحراسة الليلية ، أيجرؤ أحد على الاقتراب من موضع تواجده ؟ و مع ذلك فهو طيب القلب يمد يد العون لمن أراد، و لا يتوانَ عن مساعدة إخوانه

بالوحدة العسكرية ، يستمع للجميع و لم يشتكِ من شيء على الإطلاق ، بل يفخر لخدمة وطنه و لو كلّفه الأمر إزهاق روحه.

لكنه لم يدرك و هو يحادث نفسه أن تلك ستكون آخر ليلة يشهدها بحياته مع زميله عزام... فقد تسلل أحد العناصر الإجرامية لزرع قنبلة بموضع الكتيبة التي ينتميا إليها ، إنها تقبع بموضع حسّاس يتم حمايته لعدم اختراق شخص غريب لحدود البلاد.

اقترب عزام و قال لفؤاد:

• هلم يا فؤاد ، فلقد انتهى وقت حراستك.

ردّ عليه فؤاد قائلًا:

• أتعلم ! أشعر بضيق ، صدري مقبوض ، أحس بقرب وقوع شيء ما ، فليحرسنا الله و لتمر الليلة على خير ، كم أتمنى طلوع النهار دون وقوع ما يؤسف له.

قال عزام:

• إن الله يشملنا برعايته ، نحن نغوص جميعا في كنفه.

كم هو رحيم علينا و لا نعلم ما يُخبِّأه لنا ، تخلى عن مخاوفك هذه و ارحل قبل ان يتنبه أحد ، ألا تشعر بالتعب؟! اذهب لتغفو قليلًا.

تمهّل فؤاد قليلًا علّه يمكث مع زميله بعض الوقت و لكن عزام كالأسد المغوار لا يحتاج العوْن و المساعدة فهو بألف رجل و بألف حارس.

ابتسم فؤاد قائلًا:

• أراك صباح غد ، و ليحرسك الله.

عند مغادرته لم يتخلّ عن مخاوفه و هواجس نفسه ، لكنه مضطر للمغادرة تاركًا زميله لأداء عمله.

استعدّ عزّام للطَوَفَان حول مكان حراسته للإطمئنان على أمن المكان و أنه لا يحوم حوله أي حائم ضال ، و أثناء التفافه حول بوابة الحراسة لمح من بعيد شبح أسود لا يرى منه شيئًا ، يرتدي ملابس مموهة لا تتراءى للبعيد و لا تَنُم عن شخص مرتديها كما أنه يرتدي حذاء برقبة طويلة تمتد حتى ركبتيه و قد قام بلف رأسه كاملًا لا يظهر من رأسه سوى عينان حادتان تصوبا النظر إليه..

لاحظه عزام فبادره بقوله:

• اثبت مكانك و أعرب عن نفسك.

فلم يتلق أي جواب بل لاحظ اندفاع الشبح الملثم نحوه بكل قوة؛ فاتجه بدوره إليه وهو يردد بأعلى صوت له:

• حرس سلاح ، حرس سلاح.

و كانت آخر ما لفظه في تلك الليلة و بعدها دوّى الانفجار الذي اهتزت له المنطقة كلها.

أفاق الجميع على ما حدث و كانت كل الوحدات تهرول من اتجاه لآخر و النيران المشتعلة تشتد و تستعر و لا يعلم أحد حقيقة ما حدث للتو ، و لا عدد الضحايا ، حتى المنتحرين لا يقف أحد على حقيقة أمرهم ، كيف تسللوا إلى مقر الوحدات العسكرية؟! و هل هناك من ساعدهم في ذلك الأمر؟! أم ماذا؟! كانت الأسئلة تدور في الأذهان و لا إجابة لها.

عندما وصل خبر الانفجار لمسمع فؤاد على الفور حمل سلاحه و اتجه ناحية بوابة الحراسة التي ترك عندها زميله عزام يتمنى من صميم قلبه أن يجد زميله كما تركه ، لكن شعور يخالجه بشيء مضاد لما يتمناه ، ما يخشاه قد وقع بالفعل و انتشرت الفوضى في المعسكر بأجمعه ، ويحي ، ألم أتنبه؟! لقد وقع بصري حقًّا على شيءٍ ما يحوم بالخارج لكن الظلمة، يا للعنة ، لترحمني يا الله ، أنا سبب ما حدث ، لقد تغيبت عن الوعي و فقدت صرامتي حين اختلطت هواجسي بالسماء و أفلاكها، ويحي ، فلتسامحني يا عزام ، أنت البريء كغيرك دائمًا ، يقع لك هذا كما وقع لغيرك دون أدنى ذنب تقترفه ، ليتي لم أتركك ، ليتني لم أتحرك حتى أموت معك ، يا الله ما هذا الجنون الذي يجتاحني فلتصمت يا ضميري الآن فنحن في أوج الشدة و أحتاج لاستعادة وعيي الغائب.

وصل فؤاد إلى موقع الإنفجار ليقع بصره على أشلاء و قطع من جسد زميله و آخرين أيضًا ، إن هذه القطع المترامية هنا و هناك لا يصدق آدمي أنها لشخص مثله جسده كجسده تتشابه الأعضاء معه ، ألم يشعر من نفذ هذا بالخزي والعار على ضياع إنسانيته ، أكاد أجزم أن الحيوانات المفترسة لا تفعل ذلك مع فرائسها بل تخنقها قبل افتراسها و هكذا يستمر نظام الكون الأبدي ، أما نحن البشر فبكل سهولة يقنع نفسه أن قتل هذا أو ذاك جائز لمجرد اختلافه معه بالرأي أو الديانة أو ربما لجنسيته و لطالما قام بتبرير فعلته بإنساب نفسه لمذهب و شريعة تبيح قتل و هتك أعراض الآخرين و بكل حماس و دون تردد يذكر، بل و الأدهش هو اقتناعه و غلبته على ضميره في ذلك ، إن تلك الأشلاء التي أراها لهي أطهر من كل المخلوقات الإنسية.

ليتني لم أتركك يا عزام ، كيف سأقابل والدتك؟ كيف سأنظر إليها؟ أتتجرأ عيناي أن تواجهها؟ لا لن أستطيع ، فلتبتلعني الأرض ، لكن مع ذلك لن اترك حق لك يضيع يا عزام ، سأنتقم لك و للبقية و ليساعدني الله في تحقيق ما عزمت عليه.

انقضى اليوم بأكمله في تجميع أشلاء الضحايا و تم التعرف على أشلاء شخص غريب وسط أفراد الحراسة المسلحة ، لكن لم يتم التوصل إلى انتماءاته أو تحديد جماعته و هويته بالتأكيد هذا منفذ الهجوم الإجرامي ، فلتذهب إلى الجحيم أنت ومن ساعدك في فعل ذلك ، و لن تجفل لي عين حتى أقض على أعوانك و أقتص منهم.

اتفق جميع أفراد الوحدة على توصيل جثث زملاءهم و دفنها بأيديهم والثأر لهم من أولئك الأوغاد ، فقد ذهب فؤاد لقائده و طلب منه الإشتراك مع الحملة الموجهة لقلب الصحراء و بطن الجبل فوافق القائد على ذلك عندما رأى نظرة الإصرار والعزيمة في عينيه.

اتّجه فؤاد حاملًا سلاحه الخاص به وسط مجموعته للبحث عن أثر هؤلاء الأوغاد المتربصين لحراس بلاده و شعر بالارتياح يجتاحه شيئًا فشيء و كانت سعادته و فرحته الكبرى حينما تراءى له ذلك الوكر العكر الذي يضم الذئاب و الخنازير المدججة بالسلاح ، لقد حانت اللحظة للقضاء عليهم و التخلص منهم في ضربة واحدة.

اشتعلت المعركة لمدة ساعتين ، بتبادل إطلاق النيران من الجانبين ، كُلٌّ بدورِه يأْمل للقضاء على خصمه و ربحه للجولة و ظهرت شجاعة فؤاد حينما قام بقتل خمسة أفراد منهم و اجتياح الوكر يتقدم زملاءه دون أخذ الحيطة والحذر مما يحدث له.

كل ما كان يشغله هو الأخذ بثأر زميله الذي تحدث إليه قبل موته بلحظات قليلة ، فهذه اللحظة الفاصلة للقضاء على تلك الحثالة الهائمة في الصحراء تلك الحثالة التي تقضي على الأخضر واليابس دون تفرقة بين ما هو آدمي أو غيره.

الآن قد انقض حساب فئة صغيرة فقط منهم لكن البقية الخافية تتوغل وتنخر كالمرض في العظام لا تكف أيديهم عن محاولات التخريب والقضاء على أمم بأكملها.

علينا جميعًا التكاتف لوقف هؤلاء والقضاء على شوكتهم إلى الأبد.....

ارتاح قلب فؤاد لما حققه وهدأت نفسه لبعض الوقت وهمس قائلًا:

• استرح في قبرك يا عزيزي عزام ، إنني لم أعرفك حق المعرفة لكن المبدأ لا يتجزأ ، أنت زميلي ولك حق عليّ وقد أخذت حقك من رقاب الغادرين.

نظر إلى السماء يخيل إليه رؤيه ابتسامة صافية من وجه عزام الملائكي كما رآه قبل وفاته.

****

02"
" جارية موسى
"

استأذنت الجارية "حور" من حارس الباب ليخبر مولاه برغبتها لرؤيته ، فقد عاد سيدها "موسى" (*) لتوَّه من الخارج بعد غيبة استمرت قرابة أربعة أشهر يستأنف فيها فتح بلاد الأندلس مع القائد طارق بن زياد.

إنها تريد رؤيته ولو قليلًا من الوقت تأنس به وتذهب وحشتها التي لم تهدأ إلا بعد علمها بقدومِهِ سالمًا من حروبه الدائمة التي لا تنقطع.

دخل الحارس وتركها بالباب حتى يعط سيده الأمر لها بالدخول ولم يمض الكثير حتى خرج وسمح لها بالدخول.

دلفت حور إلى الغرفة التي تعرفها جيدًا وتحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب ، فلطالما جالست سيدها تغني وتعزف له أجمل الألحان تحاول ارضاءه واستمالته لكنه يعتبرها كأي جارية أخرى لا تزيد ولا تنقص عن الأخريات ، أما هي فتتمنى عدم مغادرته و الجلوس أسفل قدميه حتى موتها ، إنها تعشقه بكل قطرة دم بها وبكل كيانها الحالم الذي لم يتوقف قط عن مغازلته.

عندما رأت سيدها يقوم بتبديل ملابسه انحنت أمامه بكل رقة وقالت:

• اسمح لي سيدي أن أساعدك في خلعها.

نظر إليها موسى بود وقال لها:

• ما الذي أتى بك يا حور في هذه الساعة المتأخرة؟! ألم يداهمك النوم بعد؟! أم تشعرين بأرق يتعارك مع النوم فيغلبه!

ابتسمت حور ، اقتربت من سيدها تساعده في إزاحة ملابسه الفوقية.

قالت له:

• بل لم يأت النوم لي أبدًا منذ خروجك من البيت للغزو وحتى عودتك الساعة ، كنت قلقة عليك أخاف أن يصيبك مكروه فأموت

(*) موسى بن نصير فاتح وقائد عسكري ولد عام (640 م – 19 ه) أصبح واليا على أفريقية في عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك

ضحك موسى بصوتٍ عالٍ ، ينظر لأعلى.

يقول:

• أتحبينني كل هذا الحب يا حور؟! ألم تحاول إحدى الجواري قتلك أو التخلص منك بسبب ذلك الحب.

• بل حاولن جميعهن دون جدوى ، فحبي لك أقوى من الموت والقتل ، ولكن ألا تشعر تجاهي بمثل ما أشعر به؟

• أنا أحبك يا حور ، كما أنك مسامرتي المفضلة ألا يكفيك هذا؟

• لا يكفيني ، ألا تفعل ما هو أفضل لي ولك يا مولاي.

• وما هو يا حور؟

• تتزوجني وأعيش تحت قدمك للأبد ، فأنا لا أريد سواك ، ألا أحرك فيك شيئًا؟! إنني فتاة جميلة ، تسابق عليّ الكثير من الأغنياء لشرائي من السوق وتداولني أمراء وحكام الروم قبل قدومك فاتحًا ، لكنني لم أشعر بنفسي إلا بين يديك أنت.

• ولماذا لم تشعري به مع غيري من الأغنياء؟

• لأنك زهدت فيّ وفي غيري من الجواري ، كما أنك تعاملنا بلطفٍ بالغ وبقلبٍ رقيق رغم أنك رجل حرب محنك ، تقاتل وتدافع وتأسر الأقوياء ، لا تُفرِّق بيننا كجواري لك وبين أهل بيتك وتخشى علينا كخشيتك على نفسك أما ما قبلك فكل ماشغلهم هو المتعة الجسدية فقط ولا يتوانون عن قتلنا كعبيد إذا حانت الفرصة لهم وهم مخمورون.

• وماذا بعد يا حور؟

• ألم تغير اسمي من مارين إلى حور وذلك بسبب بشرتي ناصعة البياض وقد تقبلت اسمي الجديد في الحال، فرحة به وبك.

• إن الأسماء الأمازيغية تتبدل إلى عربية حتى يسهل نطقها وانتشارها ، كما أن حور أجمل بكثير من مارين هذا.

• أنا لا أكترث للأسماء ما دمت بجانبك يا مولاي.

• حور أريد أن أخبرك بأمر مهم قد أثقل قلبي ولكني مضطر لفعله لكسب ثقة الخليفة في الشام وأريدك أن تساعديني فيه.

• فلتأمر يا مولاي وسيدي وحبيب قلبي ، ماذا تريد مني؟

صمت موسى قليلًاثم استأنف حديثه قائلًا لها:

• لقد طلب مني الخليفة بعض الهدايا والجواري وأراد مني أن أنتق له أفضل الجواري لمرافقته في قصره وتسليته بشكل يليق بمنصبه ولابد من انتقاء الأفضل له ، حرصًا على سلامته وحياته.

• ماذا تريد مني أن أفعل يا مولاي؟

• .....

• مولاي ، ما رأيك بالجارية ماسيليا هي جارية مهذبة ورشيقة كما أنها مليحة الوجه ولديها مؤهلات في التسلية من رقص وعزف؟

• لقد فكرت بها أيضًا، إنها إحدى الجواري اللاتي ستذهبن.

• ماذا بعد؟ لقد فكرت ودبرت لكل شيء، فما حاجتك إليّ؟

• اتّخذت قرارًا بإرسالك مع الجواري للخليفة.

جحظت عينا حور ولم تنبس بكلمة، وبينما هي كذلك تساقط الدمع من عينيها دون توقف وكان موسى يفسر لها غرضه من الأمر ، بينما هي لم يصل لمسمعها كلمة واحدة مما لفظه.

قال لها موسى:

• حور ،ما رأيك بما قلت لك؟ أنا لا أثق بغيرك كي أفصح لك عما أنتوي وأريد منك عدم الشعور بالحزن لمفارقتي فما باليد حيلة، لماذا لا تنطقين؟! تكلمي ، كفي عن البكاء ، كلنا رهن إشارة لخليفة المسلمين ولأوامره.

• أَطَلَبَ منك الخليفة حور بنفسها وباسمها؟ أم أنت من تريد التخلص مني ، إنك لا تُكِن لي ما أكنه لك ، لا تشعر بوخْزٍ في قلبِك مثل ما أشعر ، لم تكتوي بنارِ الفراق مثلما حدث معي ، أليس في قلبك ذرة من الشفقة على حالي؟ فلتجبني يا سيدي ، أستحلفك بالله ، فلتفصح لي عن مكنون قلبك الآن وأعدك بفعل ما تطلب مني دون أي توانٍ أو تأجيل.

• حور لا.....

• ماذا ستبرر لنفسك أمامي؟!

• حور أتناسيتي نفسك؟! أنت ملكي ولا يحق لك أن تتحدثي معي هكذا.

• أنت قلتها، أنا ملك لك، لماذا تتخلى عني بتلك السهولة؟!

أحاطها موسى بذراعيه وكفكف الدمع المتساقط منها وأردف يذكر لها محاسن ورغد العيش بجانب الخليفة في قصره ، والمعاملة الحسنة التي ستتلقاها هناك ، الجواهر والملابس المزركشة والمطعمة بأنفس الدرر وأيضًا مكانتها المحفوظة بين جواري الخليفة ، فهو يعتقد أنها أجملهن على الرغم من اختلاف البلدان التي ينتمين إليها الجواري الأخريات ، فجمال شمال أفريقية الأمازيغي لا ينافسه جمال آخر على وجه الأرض.

وهكذا مضت الليلة بمرارتِها على قلبِ حور وظلت مستيقظة طوال الليل بجانب الشرفة العالية تنظر تجاه بوابة الحراسة وعلوها وما يحميها من جنود ، سرحت بفكرها في تلك البلاد البعيدة ، قصر آخر تتجول بداخله ، ألهذا الحد يتلاعب بنا القدر ، من قصر لآخر ومن أمير لقائد لخليفة لـــ.... والله يعلم ماذا بعد! وسيدي موسى، ماذا أفعل من بعده؟! كيف سأبتسم في وجه غير وجهه؟! كيف لي أن أخرج صوتي يتصدّح بالغناءِ لغيره؟! لكنه طلب مني التنفيذ ولن أرفض له أمر ، يكفي أنه أطلعني على هذا الأمر ولم يطلع أحد آخر ، سأنفذ يا قلبي الدامي ما طلبه وأتمنى أن تهدأ أيها القلب، فبعد ذلك لن ترى من الدنيا زخارف تغريك من الكلام المعسول.

انتبهت الجارية ماسيليا أثناء تقلبها في الفراش أن فراش مارين خالي فرفعت بصرها تبحث عنها في الغرفة الواسعة التي تضم العديد من الجواري ، وجدتها بجوار الشرفة تنظر للخارج صامتة.

نهضت ماسيليا من نومها متجهة إلي مارين.

قالت لها:

• ماذا دهاكِ؟! لماذا لم تخلدي الى النوم بعد؟!

نظرت اليها مارين وقالت لها:

• أردتُ أن أتأمل قليلًا ، وحدي ، لا أحد يعلم ربما لا نرى المكان هذا ولا القصر ثانية.

لم تنتبه ماسيليا لكلامها ، فقد اعتادت على سماع ألغاز لا تحصى من مارين من قبل ، كما أنها لا تشغل بالها بما يدور من أحداث ولا يفرق معها أعاشت في هذا القصر أم غيره ما دامت تأكل جيدًا وتتزين بالجواهر وتجالس القادة والأمراء.

أما مارين أو حور كما يطلق عليها تنظر لحياتها الماضية وتأسف على ما مر بها حتى الآن.

ذكّرت مارين ماسيليا بذلك الجندي المدعو يوبا والذي تغير اسمه إلى عمرو ، حيث كان يتلمس النظر إليها كلما تنزهت بالحديقة ، حاول التحدث معها ذات مرة لكنها ردعته ، خوفًا على حياته، كانت تسعد بنظراته المصوبة تجاهها بل أكثر من ذلك كانت تكثر من التجول بالحديقة لتتلذذ بنظراته وشوقه لها ، أما الآن فهي تشفق على نفسها ولا مجال لتوديع ذلك الجندي الرابض خلف بوابة

الحراسة يترقب بشغف قربها منه، أبسط الأشياء في الحياة والتي يتمناها المرء منا تحرم عليه ويحرم منها ، كم أنت قاسية أيتها الحياة! لقد تذوقت من نفس كأس العذاب الذي أذاقه يوبا دون أمل، لأول مرة أشعر به وبشعوره تجاهي، ليتني لم أتشمت به وأقلل من شأن حبه، فحالة الفشل في الحب لا يشعر بها سوى من أصابته الخيبة وانتهاء الأمل في الوصول إليه.

تنهدت ماسيليا وقالت لمارين:

• تصبحين على خير..لقد غلبني النوم وتمكن مني وأنصحك أنت أيضًا بترك هواجسك ومخاوفك والنهوض للنوم، فقد اقترب الفجر وقد أمر مولاي موسى بالاستعداد باكرًا لأمر مهم سنفعله.

نظرت إليها حور بحزنٍ شديد، فهي الوحيدة التي تعلم بما نوى عليه سيدها ولم يذكره بعد للجميع. ففي الصباح سيتجلى كل شيء كما النور ولا مجال لأي مخالفة أو اعتراض من جانبهن، فهم ليسوا مخيرين في شيء.

سوف تبق ذكرى مولاي وسيدي وحبيب قلبي موسى بين أضلعي إلى الأبد حتى يتخطفني الموت ولكني يجب أن أتصرف بحكمة وأجد حلًّا لتلك المعضلة حتى أبق بالقصر دون رحيل أو الموت.

في الصباح التالي كان كل شيء على ما يرام واستيقظت الجواري كعادتهن لرؤيه سيدهن وتهنئته بالقدوم المبارك حتى يغدق عليهن من الجواهر والأقمشة ما يرضين به.

ولما انتهى عرض الترحيب والرقص والغناء، أمر موسى بمغادرتهن القاعة فلبّيْن جميعهن إلا حور بقيت دون حراك لتلق ما بجعبتها أمام سيدها فقالت له:

• هل فكرت جيدًا يا سيدي فيما تحدثنا ليلة أمس؟

التفت اليها موسى وعقب قائلًا:

• لقد قررت منذ مدة ولم أعط نفسي الحق بالتفكير في الأمر، ولتخرجي الآن للحاق ببقية النسوة

اغتاظت من كلماته اللاذعة فردت:

• وما بالك لو كنت حاملا منك؟ أتتخلى عنى بسهولة وتتركني أرحل؟

لم يصدق موسى ما قالته جاريته ، فمنطق الحمل غير وارد لديه ومن تخالف أوامره تقتل، لكن حور تتحداه بقولها لتنظر ماذا يفعل بعد.

اقترب منها موسى وحدق بعينيها فأكدت له الأمر، فثار ثورة عارمة.

ردد قائلًا:

• وما العمل اذن ، كيف سنتصرف ، أتضعينني أمام هذا الأمر مجبرًا بحجة الحب تلك؟ ويحك يا لك من حمقاء ، غير مدركة العواقب.

ابتعد موسى قليلًا عنها ، متمشّيًا بالقاعة ومواليًا ظهره لها

انفطر قلب حور من ردة فعله معها واتخذت الفرصة لفعل ما نوت عليه، فأخرجت الخنجر من حزامها وقامت بطعن بطنها وأخرجت حشرجة ضعيفة معقبة:

• لا تقلق سأريحك مني للأبد

ثم هوت على أرضية القاعة.

التفت موسى على صوت الارتطام بالأرض فوجدها تقطر دمًا وبجانبها الخنجر فذهل وصاح بأعلى صوته:

• أيها الحراس هلموا بأقصى سرعة، أحضروا الطبيب في الحال، أحضروا الكيميائي ومختصة النساء بالقصر، أسرعوا.

حملها على ذراعيه لوضعها على فراشه، وكانت حور محتفظة بقليل من وعيها فمدت يدها لتمسح على وجه سيدها حينما رأت عيناه مغرورة بالدموع من أجلها وبعد لحظة خرت قواها واستسلمت لفقد وعيها.

مرت الساعات وكأنها سنين عجاف على موسى وهو ينتظر بفارغ الصبر خروج الطبيب أو أحد مساعديه ليهدأ من روعة وألمه الذي اشتد بصدره نتيجة وقوع الفاجعة لحور.

أيتها الحمقاء ماذا فعلتِ؟ لن أسامح نفسي إذا وقع لك مكروه وليسامحني الله ، لن أتخل عنك بعد ما حدث ولو وصل أمرك إلى الخليفة.

خرج الطبيب من القاعة التي كانت قبل ساعات للفرح والمرح أما الآن فهي بمثابة غرفة للجراحة والكل يترقب الخبر، ماذا بعد.

قال الطبيب لسيده:

• سيدي لقد تم إجهاض الجنين والجارية في حال خطرة ونرجو من الله العون وليس بيدي أكثر من ذلك.

تعجب موسى من حديث الطبيب وقال لنفسه إنها لم تكذب علي! كانت تحمل طفلًا بأحشائها! لماذا لم تصارحني ليلة أمس بهذا الأمر؟ أأرادت اختبار حبي وتعلقي بها؟؟!

ضرب موسى بكفه على الحائط وعلى الفور توجه للداخل وأمر المساعدين بالرحيل وبقى هو بجانب حور يتأمل وجهها الذي تغيرت ملامحه وشحب كثيرًا، مرّر يده على وجهها وتحدث بصوت يكاد يكون مسموع.

• لقد عرفت وتيقنت من حبك لي وأعاهد الله إذا تم شفاؤك ستكونين زوجة لي طول العمر.

ثم أمسك يدها وقبلها فأحس بحركة بها وعندما نظر إليها وجدها تسترد القليل من عافيتها قائلة له:

• أحمد الله أنني سأموت بين يديك وأحمده أنني عشت لهذه اللحظة التي أسمع فيها منك أنك تريدني زوجة لك، كم تمنيت أن تقولها قبل ذلك.

توقفت حور للحظة لتبتلع ريقها وهو ينظر اليها ويتوسل بعدم إرهاق نفسها بالحديث، لكنها لم تمتثل له.

أردفت تقول:

• الآن حصلت على مبتغاي في جعلك تحترق شوقًا كما كنت أنا من قبل، سأظل خالدة بتفكيرك وحياتك ولن تفارقك هذه الذكريات يا موسى.

وبدأت تخور قواها مرة أخرى وهو يطلب منها السكوت حتى قالت:

• سأسكت إلى الأبد، لن أزعجك بعد اليوم يا ... يا موسى ...

ثم سقطت يدها بجوارها والدمع يسيل من عيني موسى وهو يطلق صرخة قوية اهتز لها القصر كله، مُحتجًّا على فراقِ أغلى وأنفس الحوريات لديه.

لقد نجحت في أن تلقنه الدرس المطلوب.

ولن ينساها ما دامت الروح تدب فيه.

****

امتطى الوزير الهُمام جواده بعد أن توارى عن أعين العامة بارتدائِهِ ملابس لا تفضح مهنته ولا تُعْرِب للعامةِ عن نفسِه، ثم أخبر حراسه ومساعديه بالبقاء مع القائد صلاح الدين، فلا داع لمرافقته بعد ارتداء تلك الملابس الرثة، أما بالنسبة للجواد فسيتركه بأقرب مكان قبل اقترابه من سوقِ المدينة.

لم يتعجب الحراس من قرار سيدهم، فهو يُحِب المغامرة واستطلاع أخبار البلاد بطُرُقِه الخاصة وكفى بسوءِ الأحوال خير دليل؛ فالحملات الصليبية تغزو المدن والقرى بلا تمييز أو تفرقة، كما أن المغول بدأوا بإثارة القلاقل مع البلاد الإسلامية المجاورة لها ولذلك لا يثق إلا بعينيه وما يراه من تصرفات العامة وحركة البيع والشراء وخلافه.

قرر المرور في بدايةِ الأمر بسوقِ النخّاسين فهو أنسب مكان يجمع فئات الشعب، يرتاده الأغنياء والأمراء لشراءِ العبيد والجواري الحسناوات، أما بالنسبة للفقراء ففرصتهم رائعة لإختلاسِ النظر للجواري بمختلف أشكالهن من فارعات الطول إلى ذوات الشعر الأشقر والراقصات منهن، بطبيعةِ الحال لا يتم عرض إلا أفضل النساء لجلب مزيد من الأموال لصاحبهن.

سار الوزير بين الجمع وحاول اختيار مكان ملائم يجالس فيه الفئات المختلفة ويستمع إلى حديثهم؛ فوقع بصره على ركنٍ خالٍ إلا برجلٍ يوحي منظره بالبؤسِ الشديد، ما أن يقع بصر المارة عليه حتى ينفروا منه ويهربوا لمكان آخر، فانتهز الوزير هذه الفرصة وجالسه على مضض حتى ينهي مهمته.

نظر الرجل للوزير وابتسم له وبدأ يتجاذب معه أطراف الحديث فقال.

• أشعر أنك لا تنتمي لهذا المكان يا سيدي.

• وما الذي أوحى لك بذلك...أنت عرّاف؟!

(*) بهاء الدين قراقوش وزير القائد صلاح الدين الأيوبي ومساعده بالقاهرة عرف عنه الصلاح والعدل والتسامح.

• لا ولكني أشعر دائما في هذا المكان لا أعرف غيره ، ليس لي بيت أقيم فيه ، كما أني لا أعرف لي عائلة وأُفَضِّل هذا المكان لعطف الأغنياء عليّ ولو بالقليلِ من أموالِهِم.

• وما الذي جعلك تفكر أني لا أنتمي لهذا المكان؟

• على الرغم من أنك ترتدي ملابس رثّة ونعل رديء وعمامة مُتَهَتِّكَة إلا أن تجوالك بالمكان ونظرات عينيك واختيارك لمجاورتي تنم عن شخص فطن يريد الاستماع والرؤية ولا يحتاج إلى التمتع كما العامة.

تعجب الوزير من بساطة الرجل وفطنته رغم فقره المُدْقَع، فحاول معرفة المزيد منه عن أحوال العامة والسوق وما رأيهم في وزيرهم قراقوش وحاكمهم صلاح الدين وطريقته في إدارة البلاد.

قال الوزير للرجل:

• أرى أنك خبير قديم ومُتَمَرِّس في فهمِ ما يدور حولك من أمور ، فما رأيك بما يدور في البلاد وشئون العباد؟

قال له الرجل:

• أن أتعرف إليك أولًا قبل الخوض في أي حديث، فلابد للإنسان من معرفة أخيه حتى يأنس به ويثق فيه، بالنسبة لي الجميع يعرفني هنا لأني كما ذكرت لك مقيم هنا ، أنا أدعى شمس الدين وأنت.

رد الوزير عليه قائلًا وأنا فخر الدين.

• أهلًا بك يا فخر الدين في سوقِ بيع الآدميين بلا رحمة ، بلا شفقة ، كأن النفس والهيئة التي خلق الله عليها الإنسان غير مُشرِّفّة له ، آهٍ لو أنك مثلي مقيم هنا لرأيت العجب وطار لُبّك من أفعال الناس.

اعتدل الوزير في جلسته وحمد الله في سره على أن هذا الرجل الحكيم الذي سيكشف له كل خبايا العباد بجلسته وحديثه.

قال الوزير للرجل:

• تكلّم وأفصح بمكنونِ صدرك يا شمس فأنا أشعر بقرب مجلسك وحلاوة كلامك، كما أنني في قرارة نفسي أحس بعدم استغنائي عنك ومرافقتك على طول الأيام.

ابتسم شمس بحنانٍ بالغ واطمئنّ قلبه أكثر لفخر الدين فقال له:

• أتعرف يا فخر مُذ أتيت إلى هذا المكان لأقتات منه وأنا أشعر بالخزي لموت الضمير الحي في بني البشر؛ فقد اعتدت على مدِّ يدِي للقاصِ والدّانِ فلا يتقدم مني إلا الفقراء فيعطونني ولا يبخلون عليّ، أما الأغنياء الذين أعطاهم الله ليتصدقوا على أمثالي لا يقتربون مني أبدًا وكأني مجزوم، ينظرون إليّ باحتقارٍ ثم يمضون بطريقِهِم، وقلّما أعطاني غنيّ غريب عن البلاد وعَطَفَ عليّ أمام العامة ليمتدحونه وينشدون فيه من الشعر، يا للمفارقات العجيبة يعطني الغرباء ويمنعني الأقرباء! كم من غريب دنا وكم من قريب

قصا! أتعلم أن الجميع يتمنى شراء الجواري حتى الفقراء؟! يعيش حياته مانعًا نفسه وزوجته وأولاده، مادًّا يداه للدّيْن والذل من أجل شراء جارية تُفَرِّج عن حالته! هؤلاء الحمقى والمجانين كل شاغلهم متاع الدنيا وزينتها ولا يكترثون بدُنُوِّ عدوٍّ يستعبد أولادهم ونساءهم، الكل منهم لديه ما يكفي قوت يومه كاملًا ولا يحمد الله، أما الأغنياء يتحكمون في البضاعة والأسواق ويتفقون على رفع أسعار السلع طمعًا في الرِبْحِ الوفير وإذا طُلِب منهم عطاءً للحروبِ يمتنعون عن الدفعِ متعلِّلِين بسوءِ الحال وضنك العيش.

تعجب الوزير من حكمة الرجل وبلاغته وفهمه سر الحياة رغم حاجته الشديدة، فلا يكاد يستره شيء إلا القليل من ثوبٍ صوفي أكثره مُرَقّع بالخيوطِ ومع ذلك لا يطمعْ في الكثير ولكن لماذا لم يحاول العثور على عملٍ أفضل من التسولِ ومدِّ اليد للغير؟! جالَ السؤال بخاطرِ الوزير فقرأه شمس بفطنتِه فأردف قائلًا:

• أنا أفهم ما يجول بذهنك وسأوضح لك؛ ذات مرة فكرت أن أعمل حدّادًا وأتعلم صنع السيوف وأدوات الحرب فذهبت للحداد للعمل معه في بدايةِ الأمر علّمني الحِرْفَة وعلمني كيفية الطرق على الحديد وتطويعه بالنار حتى أتقنت العمل أكثر منه، فتواكل عليّ وترَكَ لي الحانوت لما لمس من أمانتي واتّجه لشربِ الخمر وقضاء الليل في المحرمات ولما ثقل عليّ عبء العمل واشتكيت له نهرني ثم طردني خارج الحانوت بعد أن أبلغت زوجته بأفعاله، فطبيعة العباد هنا اتِّكَاليّه على غيرهم ولا يشكرون لأحد.

أما الآخر فكان جزّارًا عملت لديه ولكنه كان نهم في حبِّ المال حتى في أحلك الأوقات والأزمات كان يزيد من أسعار الذبيحة

وبالطبع لا يشتري غير الأغنياء أما الفقراء والمعدومين فيتسابقون مع كلاب الحي لاختطاف العظام وطبخها، فتركت العمل عنده لعدم اقتناعي به وفضلت التجول في ملكوت الإله باحثًا عن نفسي الضائعة وعن إنسانيتي المفقودة وسط الحمقى والمغفلين وتعلمتُ الكثير من أحوالِ المارّة نساء أو رجال، فالكلمات جميعها تخرج أمامي وبذلك أعرف مقاصدهم واحتياجاتهم وأفراحهم وأحزانهم.

وظل يقص على الوزير حتى تعب من الحديث معه، ولما قاربت الشمس على غروبها تهيأ قراقوش للمغادرة ، فقد طال الحديث مع شمس ولكنه ليس كأي حديث إنّه أشرق بداخل الوزير أشياء لم يعرفها بعد وعلم اليوم من الأسماء ما يكفي لإجراء تحقيقات لا تنتهي. استأذن الوزير من شمس قائلًا:

• لن تكون آخر زيارة لي، فالحديث معك بمثابة مجالسة ألف فقيه وعالم

وأخرج من جيبه صرة من العملات الذهبية وقذف بها في حجر شمس وقال له:

• هذه لك يا شمس فلتشتري أجود الثياب والنعال وغدًا سأبعث لك بمرسال لتحضر إلى بيتي، فأنا أحتاج معاونتك في إصلاح شئون البلاد وعندما هم بالمغادرة

قال له شمس:

• الوزير لا يحتاج للعون، فهو خير عون ويكفي اختلاطه بالعامة واتساع صدره ووقته لجلب المعلومات دون الاتكال على معاونيه.

ابتسم الوزير هذه المرة ولكن دون تعجب فرجل مثل شمس بذكائه لا تَخِيل عليه تلك الحيلة من التخفي.

****

" طعم الخيانة "

لم يطق "ابن العلقمي" (*) صبرًا داخل القاعة الكبيرة فقد سيطر عليه القلق والريبة، انه على هذا الحال منذ ما يقارب النصف ساعة، يتحرك جيئة وذهابًا، ينظر من الشرفة أحيانًا، ينادي على حاجبه يسأله عن زائر طلب مقابلته؛ فتَوَتّره الزائد عن الحد نزع من قلبه الحيطة و الحذر هذه المرة.

إن الرسالة التي من المفترض أن تصل برفقة الحمام الزاجل لم تصل بعد، تأخرت عن موعد وصولها نصف ساعة، فماذا هناك يا ترى؟! أتَعِبَت الحمامة وهبطت لترتاح قليلًا على إحدى قمم الجبال، أم وقعت في يدِ صيادٍ ماهر، ويا هل ترى فضت الرسالة على يد أحدهم؟! يا الله ، إن عقلي سيطير ، هكذا ردد الوزير داخل نفسه.

لم يستطع السيطرة على نفسه ولا كبح صوت غضبه فنادى مرة أخرى على الحاجب لسؤاله ولكنه لم يحصل على شيء وأثناء وقوفه بالداخل مع حاجبه، دخل حاجب آخر مستأذنًا بقوله:

• سيدي الوزير لقد أتى شخص يريد مقابلتك على وجه السرعة.

أشار إليه بالمغادرة وإفساح المجال لدخول السائل ولما وقعت عيناه على الرجل تنفس الصعداء وتمتم في سِرِيّه ، الحمد لله، بادر بسؤال الرجل قائلًا:

• لماذا تأخرت هكذا؟ سيكون عقابك عندي شديد .... كيف تجرؤ ...؟

ولم ينته من لفظ الجملة حتى قاطعه الرجل قائلا:

• سيدي أنا خادمك المطيع وظلك الذي لا يشعر به أحد، فلتهدأ قليلًا حتى أقص عليك ما جرى ، إن رسالتنا التي بعثنا بها لقائد المغول وصلته وقام بفضها في الوقت المحدد تمامًا، أما بالنسبة لرسالتهم الآتية فقد شاءت الأقدار أن تتأخر في الرد علينا ريثما يفكرون كعادتهم لكن التفكير طال بهم هذه المرة يا سيدي، انهم يشعرون بالقلق حيال المعلومات التي طارت إليهم ، لا يصدقون انك قد قمت بإقناع الخليفة الذي يحكم العالم الإسلامي بالسير لهم ومطالبة الهدنة معهم دون جيش للحرب، يحسبون أن تلك مكيدة منا وخدعة نستدرجهم بها.

(*) هو محمد بن أحمد بن العلقمي ولد عام (593 هـ – 1197 م) كان وزيرا عند الخليفة العباسي المستعصم ، اشتهر بالفصاحة بجانب خبرته السياسية ، تراسل مع هولاكو قائد المغول غزو بغداد

أردف الوزير هامسًا له:

• وكيف عرفت كل ذلك وحدك يا ماكر .... أقرأت الرسالة.

تنحنح الرجل وابتسم قائلًا بخبثه المعهود:

• لَمّا لم تصل الرسالة بمعادها إليّ مع الحمامة الموكلة بها ووصلتني متأخرة سار الشك في نفسي، فخفت أن تكون مكيدة مدبرة ويكون اسمك مسجل بها أو يتابعها أحد للإيقاع بك، فأنا أعلم أن حاسديك كثر وخفت على شأنك وسلطتك أمام الخليفة والعامة؛ فقمت بدوري بذبح الحمامة وتناولت الرسالة على وجه السرعة متجهًا إلى الباحة الخلفية ببيتي وقرأت ما بها، ليس لخيانة أمانة الرسالة حاشا لله ، ولكن خوفا عليك كما ذكرت.

ركز الوزير نظره على أرضيّة الغرفة وأمسك الرسالة بإحدى يديه ولحيته باليد الأخرى ثم تحرك ليجلس على وسادة فاخرة، أخذ وقته

الكافي في قراءة الرسالة بدقة شديدة وتنفيذ ما جاء بها بأقصى سرعة.

إن رجل مثل الوزير ابن العلقمي ليس بهيّنٍ أبدًا إنه داهية استطاع بفطنته الوصول إلى عقل خليفة المسلمين المستعصم مما جعله مصدر ثقة وترك له حرية التصرف في شئون البلاد دون أي مراقبة أو قيود من الخليفة بل الأدهى من ذلك إقناعه الخليفة بتخفيضٍ عدد الجند وتوفير المصروفات نظرًا لقرب فراغ خزانة الخليفة كما قام بإقناع المستعصم بطلب هدنة من المغول حقنًا لدماء المسلمين واستخدام الفكر السلمي بدلًا من السيف والحربة.

لكن ما لا يعلمه الخليفة أن هذا الثعبان التفّ حول عنقه لانتزاع عقله وعينه حتى لا يستطيع التفكير أو رؤية ما يجب رؤيته بوضوح.

خرج الرجل من القاعة بعد أن دسّ في جيبه كيسًا يحوي حفنة من العملات الذهبية نظير خدماته، وبعد خروجه بقليل عدّل الوزير من هيأتِهِ واستعدّ لملاقاةِ الخليفة لإطْلاعِه على خُطّتِه الجديدة التي توصّل إليها لإنهاء الأزمة بين المسلمين وجيش المغول المتربِّص للقضاءِ على كلِّ ما هو أخضر أو يابس.

دخل الحاجب القاعة الكبرى على الخليفة، فانحنى أمامه قائلًا:

• مولاي خليفة المسلمين سيدي الوزير على الباب يريد مقابلتك...

أشار المستعصم بيده مُعْرِبًا عن موافقته.

دخل ابن العلقمي على المستعصم، انحنى أمامه قائلًا:

• مولاي الخليفة ، رشيد العقل ، خليفتي وخليفة المسلمين في كل بقاع الأرض.

انفرجت أسارير المستعصم، لِحُبِّهِ المدح والثناء من وزيرِه وردّ قائلًا:

• لماذا تمتدحني هكذا دائمًا يا علقمي؟ أنت تعلم أني لا أحب الثناء في كل وقت.

ابتسم الوزير في خبثٍ وصوّب تجاهه نظرة ناريّة وهو يقول:

• لا عليك يا مولاي، فأنت خليفة المسلمين جميعًا من الشرقِ الأدنى وحتى الغرب الأقصى؛ فهل تستكثر على نفسك بعضًا من المدحِ في حضرةِ مقامك ومجلسك.

بهذه الكلمات أسكت الوزير خليفته وطوى الحديث موفِّرًا اختلاق حجج لبدء حديثه عما حضر لأجله اليوم.

إن ابن علقمي أديب متخصص في مجال اللغة، ضليع في استخدام المعاني والكلمات الرنانة التي لها بالغ الأثر على قرارات الخليفة وما يصدره من قوانين داخل وخارج البلاد، أما عبقريته بالأمورِ السياسية لا تقل شأنًا عن تميزه الأدبي والفكري، هكذا كان يظن المستعصم ويضع ثقته به دون أن تصيبه الريبة من جانب وزيره الهمام.

استهلّ الوزير حديثه مع الخليفة بقوله:

• ما قولك يا مولاي بأن نستبق السير للقاء ملك المغول والاتفاق معه على هدنة؟! مع تقديم بعض الهدايا المُغْرِيَة والجواري

لإغرائهم بقبول عرضنا وحماية بلادنا وفي ذلك الأمر بالطبع حقن لدماء المسلمين وحماية للأرواح.

رمق الوزير خليفته بنظره حادة، رافعًا أحد حاجبيه منتظرًا إجابته على مقترحه والذي بالطبع لن يستفد منه غيره.

أطرق المستعصم قليلًا ليفكر بالأمر وكعادته لم يلجأ لأخذ رأي مستشاريه قبل الموافقة أو الرفض ، إن الوزير كالعرّاف الذي يسيطر بأقاويله ومخططاته اللعينة على عقل خليفته، يشل حركته، يقيِّد عقله، يُعمِي عينيه عن الحق كالأفعى التي تُلْقِي بسمومها لتخدير فريستها قبل التّمَتُّع بالتهامها.

وفي ظل الموقف الملتهب بين اتخاذ قرار تحقيق المصير للإسلام كله، دخل الحاجب ليخبر مولاه عن قدوم قائد جيشه الدويدار.

فعلى الرغم من شجاعته وبسالته وتفانيه في خدمة بلاده وحاكمه، إلا أن الخليفة لا يأخذ كلامه على محمل الجد وكثيرًا ما حذّر الدويدار خليفته من سطوة العلقمي وخطورة أفعاله وفكره لكنه لم يجد ردًّا حاسمًا على أقوالِه من الخليفة؛ فتوقّف عن نصائحِه واكتفى بأشغالِه الحربية وتدريب الجنود.

أطْلع الدويدار خليفته عن انتهاء تدريبات جيشه واتخاذ التدابير اللازمة، الاستعداد للقاء جيش المغول، لتلقينِهِم درسًا من حاملين راية الإسلام

وانتظر رد الخليفة بالموافقة، لكنه لم يحصل على مُرادِه والرد الذي توقعه بل دهش بعرض مشورة العلقمي وأخذ القرار بتنفيذها.

حاول الدويدار بكل ما أوتي من فطنة أن يُثنِي الخليفة عمّا اتخذه ولكن دون جدوى.

صمت الدويدار محدِّثًا نفسه...إن الخطر يكمن في الذهاب إليهم دون جيش، ألهذا الحد فقد المستعصم عقله! ألم يعد يعرف عاقبة التلاعب مع هؤلاء الغاصبين، إنهم كالجراد المنتشر ينتهز اللحظة للقضاء على أرضِنا، وذبْحِنا ونثر أشلائنا، وسبي نسائنا، بيع أطفالنا في سوق النخاسة...لو أن الأمر بيدي وحدي لذبحت العلقمي هذا وأطعمت الكلاب الضالة من لحمه...يا لهذا الخنزير الفاجر، ألم يكتفِ بأعماله القذرة، لقد ساءت أحوال البلاد أكثر وأكثر، والناس ضاقت بها الحال كما أن أكثرهم فرّوا للبلاد المجاورة خشية دخول المغول بغداد والقضاء عليها.

كم هذا مؤسف الذي يحدث للمسلمين ، أين أنتم يا صحابة رسول الله؟ أين أنت ياخالد، يا عبيدة لمساعدتنا وحسم الأمر. تالله إن ما يحدث لنا عقاب من الله على تشتتنا ومحاربة بعضنا بعض، وتكالبنا على عرش البلاد وتناسينا أمر العباد فأتانا البلاء القاضي لنجتمع ثانية، ولكني لا أرى أية توحّد..لا أرى غير الفرقة والتشتت وغرق الأمراء في ملذاتهم الدنيوية كأن ما أسسه الأوائل هباءً منثورا. قطع صوت الخليفة صمت وتفكير القائد وهو يقول: لا تقلق يا دويدار سأذهب إليهم مع فرقة حامية للإتفاق على هدنة دون العوز للحرب، فهي ستجلب الدمار لنا كما أنك تعلم أن عدد الجند قد نقص ولن ينجدنا أحد من أمراء البلاد، لذلك فضّلت استخدام الحل السلمي وليساعدنا الله.

نكص القائد رأسه مُتَمْتِمًا:

• فليرحمني الله.

ثم أردف قائلًا:

• وأنا حامي ظهرك يا مولاي أينما ذهبت وسأحضر معك ذلك اللقاء الذي لا أحمد عواقبه وليحدث ما يحدث.

استأذن القائد من خليفته تاركًا وراءه الوزير يستكمل خطته القذرة في بلاط الخلافة،

وأثناء خروجه من مجلس الخليفة صوب نظرة نارية كالرمح القاصد الذي لا يخطئ تجاه العلقمي بينما الأخير يبتسم متشفيًا في غرور

فقال القائد لنفسه:

• صبرًا يا هذا ستنال جزاءك بكل تأكيد وسيكون شر الجزاء، جرّاء أعمالك القذرة. أما بالنسبة للخليفة فالواجب يقتضي أن أطيعه مهما كانت العواقب ولكني

متيقن جيدًا أن يوم ذهابنا للقاء العدو الموحش سيكون يوم حتفنا جميعًا وبلا رحمة سيقطعوننا أشلاء بادئين بالخليفة المستعصم ووقتها ليرحم الله بلاد المسلمين.

****

" بتـــاح الحكيـــم "

أشعل "بتاح حتب" (*) عودًا من البخور داخل قاعة دراسته التي يلجأ إليها لاستخلاص حِكَمِه و أقوالِه من أعماقِ روحه المتأمِّلَة ثم يقوم بتدوينها على ما يجده أمامه من ورق البردي.

إنه الآن بمفرده في تلك الساعة المتأخرة من الليل وأمامه مجموعة من ورق البردي يسجل بها كل ما يجول بخاطره من أمور تخص إدارة البلاد تارة، وتارة يضع اللمسات الأخيرة لما يخص العامة وتارة أخرى لبيان حقوق وواجبات الفرعون تجاه رعيته من أقصى الجنوب وحتى شمال البلاد.

فهذه الحِكَم هي المخلص الذي يلجأ إليه كل مصري وقت الشدة، عندما يضطرب دربه وتقسو عليه الحياة، وتصفعه دون ما رحمة منها.

فدائمًا ما يردد "بتاح" بقرارةِ نفسه قائلًا إنّ إمبراطورية كالتي نحيا بها ليست بالهينة، فنحن من نملك النهر حابي الذي يجود علينا بخيره فنزرع ونروي ثم نحصد، كما أننا نملك أقوى جند وأعظم جيش بأسلحته الفتاكة ونقوم بتأديب الممالك المجاورة من حينٍ لآخر بسبب تطاولها على بلادنا ظنًّا منهم أن لديهم القدرة على إحتلال أرضنا والعيش في نعيم ذهبنا الوفير وغلالنا المتنامية والمنتشرة في كل شبر من مصرنا الغالية.

إننا لم نُعادِ أحد،

إننا لم نحتل شعب ونذيقه الذل لأننا أحرار ونقدس الحياة بمعانيها وأنفاسها الوفيرة الظاهرة أمامنا في الطير، والحيوان ورمال صحرائنا، ورجالنا الأشداء الذين يشيدون المعابد والمقابر الضخمة

فوق أكتافهم، ليُعَلِّمُوا أبناءهم قِيَمًا أكبر من الحياة.

أكاد أجْزِم على عدم تمكن أي شعب من الشعوب المجاورة في فن واحد من فنوننا بل لا يملك حكامهم حكمة فلاح قليل الشأن من

(غنتاخ) حتب أحد الحكماء اشتهر بفلسفته وأدب الحكمة في العصر الفرعوني كان وزيرا لدى الملك جد كا رع وهو الملك الثامن بالأسرة الخامسة الفرعونية .

يا إلهي ، إله الملكوت وخالق البشر أعِنِّي على استكمال ما أدوِّنُه ليكون عونًا لكل رجل وامرأة منا في حياته الفانية وبعد مماته واستعداده للأبدية.

انقطع تفكير الحكيم عندما طرق أحد عبيده باب قاعة الدراسة، فتعجّب لذلك ، إن خدامه يعرفون قوانين سيدهم جيدًا وينفذونها بأدق تفاصيلها بألا يزعجوه أثناء خلوته للتدوين، فتمتم لنفسه قائلًا:

• لعل هناك أمر مهم لا يحتمل التأجيل.

دخل الخادم متأسِّفًا لسيدِه على مقاطعتِه أثناء العمل مُعلِّلًا بأن الفرعون قد أرسل لطلبه في الحال.

حدّق "بتاح" في ورقة بردي كان يحملها ثم أردف قائلًا:

• فليعينني الإله على اكتمال هذه الصحيفة المهمة، وقام بوضعها على منضدة مصنوعة من خشب الأرز ومطعمة بالعاج، ليستعد لمقابلة فرعون البلاد ولاشك أن الأمر حقًّا خطير ليطلبني في تلك الساعة المتأخرة ولا أحب أن أتعجل الأمور حتى أستطيع وضعها في نصابها.

أطفأ "بتاح" الشموع المضاءة وترك عود البخور لتطهير المكان بعبقه وإضفاء مزيد من الروحانية، كما صوّب نظرة خاطفة على تمثال "رع" الصغير الموضوع أعلى خزانة الكتب وخرج مسرعًا للقاء الفرعون بقصره.

عندما وصل "بتاح" إلى قصر الفرعون لاحظ جو من التوتر يلف المكان، فالشموع مضاءة، الحراس متيقظون، كما رأى مجموعة من كهنةِ المعابد يهمون بالخروج ووجوههم مستاءة ويهمسون لبعض متذمرين لمطالب الفرعون وعندما رأوا "بتاح" صوّب كُلًّا منهم نظره للآخر، فاستوقفهم كبيرهم –كبير الكهنة– بإشارة واحدة من يده ليتمكن من محادثه "بتاح" قبل دخوله للقاءِ الفرعون.

قال كبير الكهنة بتعنته المعهود:

• اااام لقد طلب الفرعون لقاءك إذن يا وزيرنا المخلص .. ترى لماذا؟

انتظر "بتاح" قليلًا ثم أردف بكل هدوء:

• أنا لم يعرف عني التسرع ولا أحب استباق الأمر وليطلبني مولاي الفرعون ابن الإله ومنفذ أوامره في أرضه وقتما يشاء..

رد عليه كبير الكهنة بضيقٍ وهو يقول:

• أفصح وقل الحقيقة يا بتاح فنحن جميعًا نعلم خبثك ودهاءك الذي يغلبنا نحن كهنة المعابد، أنت تعلم كل شيء ولن نعط لك الفرصة لتَقْلِب الملك الفرعون ضدنا مهما كلفنا ذلك.

تنهد "بتاح" وقال في ثقةٍ:

• افعل ما شئت وهيا انصرف واطلب مساعدة آمون لعله يرسل من يساعدك في التخلص مني.

اغتاظ الكاهن من تهكمه بآمون وضغط على مفتاح الحياة الذي كان يحمله بيده وقال:

• أنا أعلم جيدا أنك تكفر بالإله "رع" العظيم وتواري ذلك حتى لا يعلم الشعب ويطالب برأسك أو دفنك حيًّا دون جنازة ولعنك للأبد، ولولا الإله الذي تحتفظ به ببيتك لجعلت من لحمك هذا مضغة بين أنياب شعب طيبة ومحبي آمون.

كما أعلم أيضًا حب الفرعون لك وتقديره لدرجة جعلته يفكر في أمر آمون وعندئذ لن يجرؤ أحد على الوقوف أمامي، فأنا أمثل قوة الشعب لأني أسيطر على عقولهم بشأن الديانة وهي عندهم أغلى من الحياة نفسها،

قال "بتاح":

• لن تجرؤ على فعلِ شيء فخطاب العقل ومحاورة العامة، حبهم لي مع حماية الفرعون، وفرق الجيش التي تؤتمر بأمري تقف خلفي وتؤيدني ولذلك سأجعل من بلادنا طيبة ومنف وهيليوبوليس وكل شبر من أرضنا من أقصى الجنوب وحتى أبعد الشمال إمبراطورية فكر وعلم لم تعهد به من قبل ، في جميع المجالات من فلك وكيمياء وتحنيط وغيرها فقط بالعقل والحكمة معًا.

تركه "بتاح" واستكمل سيره لملاقاةِ الفرعون معلِّلًا تأخره وتركه وجماعته يهمهمون مثلما حدث منذ قليل.

إن كهنة المعابد هم خدام لقمة عيشهم وخدام مكانتهم أمام العامة والفرعون بحاشيته لن يردعهم أعتى عدو حتى الملوك الغزاة لطالما حاولوا التودد للشعب عن طريق هؤلاء الكهنة بإغداق الأموال عليهم وإسكاتهم عن الحق وجر قدم الشعب لما يريدونه.

لم يشغل "بتاح" باله لأن تلك الأمور تحدث دائمًا وكهنة المعابد دائمي الشكوى لأتفه الأسباب، ودلف لدخول القصر حتى قابل قائد الحرس فانحنى القائد للوزير وبلغه أن الفرعون بانتظاره، فرافقه للداخل حتى قاعة العرش.

عند دخول قائد الحرس على الفرعون قال: سيدي ملك البلاد وربها وحاكم جميع أقاليمها الوزير"بتاح" بالباب، فأعطاه الفرعون إذنًا بالدخول، وعلى الفور دخل وزيره بتاح، فانحنى أمامه قائلًا:

• سيدي الفرعون ... لقد أتيت فور طلبك لي ... أرى أن مزاجك لم يعد صافيًا كما كان أول النهار ... ماذا حدث يا سيدي وهل للأمر علاقة بالكهنة؟

ابتسم الفرعون مُوجِّهًا يده لوزيره حتى يجلس أولًا ثم يتم الخوض في شئون البلاد والرعية بعد ذلك.

شكر الوزير مولاه قائلًا:

• ولكن قل لي يا سيدي الفرعون ما سبب سهدك وعدم اقبالك على النوم في تلك الساعة؟!

رد عليه الفرعون بكل هدوء وقال:

• إنك دائمًا تدخل في لُب الموضوع دون تضييع لأي لحظة وسأقول لك السبب إذن، لقد كنت أفكر في تطبيق بعض القوانين التي تساعد الناس وتخفف عنهم عبء الحياة، فأنت تعلم أن أموال الدولة وذهبها كله يصرف على الجيش وتأمين حدود الدولة وأيضا على بناء المعابد التي يلجأ إليها العامة وقت الشدائد، لذلك استدعيت كبير كهنة المعبد ومعاونيه للمساعدة ولكنك تعلم أنهم لا يفعلون شيء غير تناول الطعام وحمل العامة على التبرع من أجل إرضاء الآلهة.

• أتعلم يا مولاي أن هؤلاء الكهنة يعلمون حقيقة عدم النفع من آمون كإله وبالرغم من ذلك يهددون الناس من سخطه وغضبه إذا تكاسلوا عن معونة المعبد وتقديم القرابين.

• نعم أعلم ذلك بوضوح ولكنهم يسيطرون على عقول الناس بالأساطير ويحركونهم كما يريدون ولذلك أخشاهم وأعيِّن من يستطلع أخبارهم.

• في الحقيقة يحزنني يا مولاي الفرعون إنساب العامة لأي ظاهرة إلى الآلهة وتقديسهم المبالغ فيه منذ قرون مضت للحيوانات والطيور، ولا يفكرون بالإله خالق كل تلك المخلوقات وراعيها.

• حقًّا إن هذا الأمر يحزنني ولكنه لصالحنا دائمًا، فأنت أدرى بالعامة لاختلاطك بهم!

• أجل يا مولاي إنهم حمقى تحركهم كلمة من فم حارس أو كاهن ويؤتمرون بأمر الفرعون دون نقاش، وسيطرتنا عليهم تفيدنا في توحيد الكلمة وقت الأخطار، كما تمكننا من جمع الأموال .. ولكن

حذاري يا ملكنا العزيز من سخطهم، إن سخط العامة على الحاكم يؤدي إلى هلاكه وزوال حكمه مهما طال به الزمن، أنسيت الثورات التي حدثت حتى وحد ملكنا "مينا" الجنوب مع الشمال ... أنسيت ما حدث من صراع وتفكك وانهيار للدولة حتى قام ملكنا المعظم "سنفرو" بلم الشمل مرة أخرى .... يجب علينا الحذر دائمًا وعدم التوان في مراقبة الأوضاع خارج القصر ومتابعة حكام الأقاليم من وقت لآخر لضمان ولائهم!

• لذلك أحتاج إليك بجواري يا بتاح، فأنت حكيم في الإدارة وفض المنازعات ويبجلك العامة وينفذون أوامرك. كما أنني تركت لك تعيين من تريد في ولاية حكام الأقاليم على طريقتك الخاصة وبشروطك أنت وحدك.

• الشكر لك يا مولاي على ثقتك الغالية والفضل يعود لمساندتك دائمًا، فلولا تفهمك وحبك للخير وللبلاد لما وصلنا لمرحلة الاكتفاء من الغلال والأسلحة.

• ولكني أحتاجك الآن لشيء أهم وأقوى من ذلك يا بتاح .... أريدك أن تسن قواعد خاصة أكثر حكمة، وأفضل حنكة لتهذيب الروح والعقل لدى الناس، لأنه عند نجاحنا في ذلك نستطيع السيطرة على العالم بحضارتنا، ومجدنا، وقيمنا الرفيعة والمتينة التي لا يوجد مثيل لها في العالم ونكون نحن إمبراطورية فرعونية خارقة بالعقل والروح معا فلا يقدس إنسان على وجه الأرض الحياة مثلما نفعل نحن الفراعنة ونحيا بروحنا ونغرق بملكوت ما هو مقدس عندنا. فما رأيك يا بتاح..؟

انتظر بتاح قليلًا لتَفَاجئه بما أخرجه الفرعون من فمه، إنه لا يصدق فقد كان طوال الليل يحاول إيجاد طريقه لعرض الأمر على الفرعون دون المساس بقدسيته ومكانته ولكن الفرعون نفسه من يعرض عليه الآن دون أن يكلف نفسه عناء المخاطرة والاقتراح يا للصدف العجيبة، فليباركني الرب الإله في ملكوته الأعظم.

وأفاق الحكيم "بتاح"على صوت الفرعون مرة أخرى وهو يسأله عن قراره في هذا الشأن، فقد لاحظ شرود وزيره للحظة.

أجاب بتاح بالموافقة الفورية بل ومما زاد دهشة الفرعون تأكيد بتاح لتسليم أوراق البردي التي تحوي الأحكام المقرر نشرها بين الناس غدًا في صبيحة اليوم.

تعجّب الفرعون لتَسَرُّع بتاح فهو لم ير منه شيئًا مثل ذلك من قبل وأحب أن يقف على حقيقة الأمر فسأله سبب السرعة في الرد وثقته بتسليم الورق غدًا. فقال له بتاح مبتسما:

• أصارحك القول يا سيدي لقد كنت أفكر في تدوين ما يبقى لأنني كما تعلم تقدمت بي السن وخارت قواي ... فقد كنت أستخلص من عقلي بعض التوجيهات والأحكام قبل أن ترسل في طلبي، وكنت أخشى عرضها عليك، فلما بادرتني بقولك فرحت فرحًا شديدًا اهتز له عقلي وقلبي وأنا لن أتوان عن خدمتك وخدمة شعبي وأمتي حتى يدركني الموت وتقومون بتحنيطي.

• العمر لك يا بتاح، فأنت نعم الصديق، ونعم الوزير ومثال لطيبة بلدنا، يُحتذى بك وسيذكرك التاريخ وسآمر النحّاتين بنقش اسمك

على بعض جدران المعابد وبالطبع سيخلد اسمك بالزخارف الفرعونية الملونة التي لا تندثر مهما طال الزمن عليها.

****

"06خالد ولدي "

دخل خالد بعد مرور يوم شاق ومعاناة في اللحاق بالمركبات إلى شقته ليجد أباه ملقى على أرضية الغرفة وبجواره والدته تحاول أن تصغ السمع لِما يردده وهي منكبة عليه وتتساقط الدموع من عينيها.

قذف خالد بأدواته وكتبه الطبية وركع ليحمل رأس والده، محاولًا إسعافه ولكن روحه فاضت إلى بارئها بعدما لفظ الأب آخر كلماته بوجود ابنه قائلًا: حمدًا لله أنني سأموت بعد رؤيتك وأنت من

يحملني ويواري مثواي، وقبّل يد ابنه ثم هوت رأسه بين يد ولده خالد.

لم تكن تلك اللحظات سوى أسوء لحظات مرت بخاطر خالد يومًا، على الرغم من كونه طبيب مبتدئ، ويعرف جيدًا أن أباه مريض بالقلب إلا أنه لم يستطع فعل شيء يذكر لمساعدة والده

فالقدر لا يرمي اتّكاله على مساعدةِ بشر.

توالت الأيام وأخذ بعزاء والده وحالته تسوء أكثر من ذي قبل، وكيف لا يحدث ذلك وقد تعود على الرجوع إلى شقته ليعطي الدواء لأبيه بنفسه ويجلس بجواره ويسامره بعض الوقت ويحاول تخفيف المعاناة عنه قليلًا كما أن أباه كان له بمثابة الأخ والصديق قبل أي شيء حتى قبل أن يكون أبا.

فموته قد وقع في نفسه موقع الهدم للروح كأنما فاضت روحه هو أيضًا بموتِ والده وبدى عليه الشيب قبل أوانه وقد أعطته لحيته التي أهمل تهذيبها مظهر إنسان مشرد أكثر من كونه طبيب ومسؤول.

لكن العجيب في الأمر هو تصرفات والدته التي أخذت في التبدل والتغير، ففي إحدى الأيام عاد مبكرًا من عمله على غير عادته، وعندما فتح باب شقته وقعت عيناه على مشهد لم يصدقه، لدرجة أنه التف مرة أخرى ليتأكد من شقته ومفاتيحه ، هل هذا البيت يخصني ؟ هل ما أراه حقيقيًّا ليس من صنع الخيال ؟ أتلك الجالسة أمي حقًّا أم طيف عابر ؟ ومن هذا الذي تجالسه وحده دون الناس ولماذا لم أسمع صوتهما وأنا أقوم بفتح الباب ؟ هكذا تحدث مع

نفسه في حيرةٍ من أمره، لكن والدته هبت مسرعة من جلوسها لتقدم الرجل الغريب الذي يراه لأول مرة في حياته، ولم يرق له على أنه صديق قديم لوالده، كان خارج البلاد ولما قدم وعلم بوفاة صديقه جاء لأداء الواجب.

لم يصدق خالد تلك القصة الواهية، فهو يعرف جميع أصدقاء والده القريب منهم والبعيد لذلك رحب به بقليل من الحماسة ولم يعره أي اهتمام ثم استأذنه لتبديل ملابسه.

أحس الرجل بضيق صدر لما بدر من خالد لأنه كان يتوقع سلوكًا مغايرًا باعتباره صديق لما فقده خالد ويعز عليه، فهمس ببضع كلمات قبل خروجه بأذن أم خالد وانصرف لحاله.

دخلت أم خالد على ابنها غرفته للاطمئنان عليه فوجدته جالسًا على سريره بملابسه وقد تغيرت ملامح وجهه، فجلست بجواره وربتت على كتفه قائلة:

• ماذا بك يا بني؟ ألن تنسى وتكمل حياتك ... أنا أعلم أن وفاة والدك تؤثر عليك سلبًا ... ادع له بالمغفرة واهتم لأمرك الحالي.

• كيف أنسى من رباني وعلمني وادخر كل ما يملك من أجلي بل ولم يرد إخبارنا بمرضه إلا مؤخرًا خشية من رفضي متابعة الدراسة .... كيف أنسى بتلك السهولة ولم يمر على وفاته سوى شهرين فقط؟!

• إنه سيظل بقلوبنا للأبد فلم يكن مجرد زوجًا لي ... يكفي معاملته لك ولي فهذا يفوق كل شيء ويعلم الله ما في قلبي لأجله.

• ولكن صارحيني القول ..من هذا الرجل حقًّا ولا تقولي أنه صديق أبي.

• أصارحك كيف .... أنا لا أكذب عليك هو حقًّا صديق قديم لوالدك.

• لا أصدق ولكن سأتغاضى عن الأمر لأني أريد تناول الطعام، فأنا لم أذق شيئا منذ الصباح.

• كل شيء جاهز سأعده حالًا لك، فلتنهض لتبديل ملابسك.

لم يكن لدى خالد ما يخبر به أمه، ولم يرد إيذاء مشاعرها بتلميح على ذلك الرجل، فلا يصح تواجده معها دون معرفته كما أنه لم يمض على وفاة والده غير مدة قصيرة وقد تنتشر الشائعات وهم في غنى عن ذلك.

كما أن الرجل خرج ولن يعد مرة أخرى بعدما تبرم منه.

لكن ظن خالد خاب فللمرة الثانية يحضر لبيته ويجد الرجل لكنه لاحظ أثر من بكاء أمه على وجهها فغضب ولم يسلم عليه بل اكتفى بقوله:

• من أنت ؟ ولماذا تحضر عند تحين فرصة غيابي ؟ أنا لا أريد رؤيتك مجددًا مهما كنت.

عند سماع الرجل لهذه الكلمات أردف قائلًا:

• سأخرج الآن ولكن لن أستطع الجزم بعدم الحضور مرة أخرى لأنه يوجد ما يوجب عليك سماعه.

استفزت تلك الكلمات خالد أكثر وأكثر وبدلًا من تخفيف آلام أمه والاستفسار منها عن هذا الموقف قال لها معنفا:

• لم يرتح أبي بقبره وأنت تحضرين شخصًا غريب الأطوار يملي علينا ما نفعله وما يجب سماعه ، ألك علاقة به أم ماذا ؟ إن تصرفاتك أصبحت أكثر ريبة لم تعودي أمي التي أعرفها. وأشعر بوجود سر غامض بينك وبين ذلك الرجل، فأنا لا يريحني مظهره.

لم تتحمل الأم ثقل هذه النبرات اللاذعة من فم ابنها، مستنكرة قوله واتهامه لها فلم تعلق وازداد انهمار العبرات من عينيها ثم دخلت غرفتها مغلقة وراءها الباب تاركة ولدها لوساوسه الشيطانية ولتصرفاته الغوغاء أمام الغرباء.

ارتمى خالد على الأريكة ليهدأ من روعه قليلًا ويسيطر على عقله الذي لم يعد يتحمل، فعلاقته بزملائه في توتر، أما عمله فلم يعد يرق له كثيرًا، وفكر في أخذ إجازة ليريح بدنه وذهنه الشارد ويقصد مكان ما، لكنه صرف تلك الأفكار عن خاطره من أجل أمه.

قال لنفسه ، لقد أخطأت في حق أمي لا يحق لي التطاول عليها بألفاظ أو بعلو صوت ، فلتسامحني يا الله ، إنها ما بقي لي وأنا ما بقي لها ، لقد صور لي الشيطان أشياء ليس لها أساس ولكن الرجل تكلم معي بنبرة ثقة ووضوح كما أن أمي كانت تبكي ، نعم أنا متأكد أنها كانت تبكي.

تنبه خالد لما دار منذ قليل واتجه ناحية غرفة أمه لإرضائها ومحاولة تفسير ما جرى.

طرق خالد الباب قبل دخوله ثم دلف ليجد أمه ممددة على أرضيه الغرفة،فقدت وعيها لما حدث، أسرع خالد لمساعدتها فقام بتعديل وضعها محاولًا إفاقتها من جديد وأحضر أدواته الطبية وبعض الأدوية لإنعاشها وظل هكذا قرابة العشر دقائق حتى أفاقت، وعندما نظرت إليه أخذته في أحضانها وهي تبكي وتردد:

• فلتسامحني يا ولدي .... اصفح عني واغفر لي.

قال لها خالد بصوت حزين:

• لا تقولي ذلك يا أمي، فلتغفري لي أنت ولتسامحيني أنت على وقاحتي ... أعدك لن يتكرر هذا أبدًا

ثم قام بتقبيل يد أمه وساعدها على النهوض لترتاح وتستعيد عافيتها.

بالطبع مرت هذه الجملة بصورة عابرة على أذن خالد ولم يحاول استرجاعها أو التدبر فيها ليشك ولو لحظة في أمه.

مر أسبوع كامل والحال كما هي عليه وخلال هذا الأسبوع لم يحضر الرجل ولم يتصل حتى فاجأ والدة خالد بزيارته، فاضطربت، في بداية الأمر امتنعت عن السماح له بالدخول، لكنه قام بتهديدها وفضح أمرها إذا لم تقم بإدخاله كي يتفاهما لوضع حد لما عرضه عليها فاضطرت آسفة بالقبول وقالت له:

• أرجوك أن تتركني لحالي أنا وابني ... ماذا فعلنا لك، إذا كنت تريد مالًا سأعطيك ما تريد شريطة أن تنسى أمرنا.

ابتسم لها الرجل بسخرية وعلق قائلًا:

• أتعرضي عليّ المال ؟ إن ما أطلبه لا يقدر بمال، أتتذكري ذلك الموقف منذ سبعة وعشرين عامًا كنت أنا من يعرض المال عليك لترحلي وتواري سوءتك.

• أتذكر جيدًا ولن أنسى ما حييت ما فعلته بي ولن أتركك تنال ما تريد.

• لا تكوني متأكدة، فولدك لابد له أن يعرف المستور وحينها لا يمكن التنبؤ بالعواقب.

• أنت سافل ومجرد من الإنسانية، يا لك من وغد ماكر.

• لا تطوِّلي لسانك والزمي حدودك.

• هاا ألزم حدودي .... أتعرف معنى الحدود فأنت مجرد من الشعور والإحساس.

لم يحتمل الرجل أكثر من ذلك فقام بصفع والدة خالد ثم أخذ يجرها من رأسها وهو يسب ويلعن أسلافها لاعنًا اليوم الذي تعرف عليها فيه وهي تصرخ وتصرخ، فتنبه الجيران لما يحدث وفزعوا للصوت وهبوا لنجدة المستغيث حينها كان خالد يصعد الدرج متكاسلًا، فلما سمع صوت الصراخ وبعض كلمات الإستغاثة تيقن أنها أمه فهب مسرعًا إليها ومن هول ما يحدث لم يستطع فتح الباب بمفتاحه الذي يحمله، فقام بدفع الباب بجسده وبكل قوته فانفتح على مصراعيه، ليجد الرجل أمامه وقد أدمى أمه من شدة الضرب، فلم يتمالك أعصابه واتجه نحوه ليمسك به وظل يصفع الرجل على وجهه حتى كاد أن يسقط، وما أن سمع صوت والدته وهي تقول:

اتركه .. لا تضربه بالله عليك يا خالد ... أتوسل إليك لا تصفعه ... كفى يا خالد انه والدك ... إنه والدك يا خالد.

انطلقت تلك الكلمات كالطلقة المصوبة تجاه قلبه فشحب وجهه وكف يده عن إلحاق الأذى بالرجل موجهًا ناظره لأمه حتى يستطع فهم ما تلفظت به.

قال خالد بتلعثم:

• ما ... ماذا قلت ؟ كرري مرة أخرى ؟ ماذا؟

قالت الأم وهي تنظر إليه: هذا هو والدك الحقيقي ، قدري

• كيف هذا ؟ وإذا كان أبي، فمن الذي توفى و ....

ولم يستطع تمالك نفسه فسقط على الأرض واضعًا يديه على رأسه محاولًا إبعاد ما يحدث عن خاطره ، أهذا حلم أم حقيقة ؟ ليتني مت قبل أن أسمع ما أسمعه الآن ، أهكذا كل شيء ؟ أينهار العالم فجأة وبدون إنذار تحت قدمي ؟ وراح يبكي بشدة حتى أحس بيد تلفه من الخلف وبصوت يردد:

• أنا والدك فلتسامحني يا ابني على ما اقترفته فما فعلته إلا بسببك أنت ، كنت أريد معرفتك والتودد اليك، لكنك لم تمنحني ذلك الشيء، فمذ رأيتني والحقد يملأ قلبك من ناحيتي ولا أعرف لماذا .

انفعل خالد ودفعه بعيدا قائلا:

• اتركني ، ابتعد عني ، ليس هناك ما يربط بيني وبينك ولن أناديك بأبي ما حييت ، لماذا تركتنا إذن ولماذا جئت تطلب الآن رؤيتي ؟ أين كنت وكيف تترك لرجل آخر إنسابي لنفسه، أنا لا أصدق ،

فلتخرج الآن لا أريد رؤيتك بعد اليوم ومن الساعة، أبي توفى وسيبقى أبي ما دمت حيًّا وكفى باسمه دليلًا على ذلك أما أنت فلا شيء يجمعنا ولا يضمنا حتى بعد الموت ، أتمنى لك الجحيم الدائم ، أنت تدعى قدري أم أنك جئت لتعكر قدري ونصيبي بالحياة.

أطرق الرجل حزينًا ونبرات الأسى تتقاطر من صوته وهو يقول:

• أنا لم أقصر يومًا، لقد كنت أتقصى أخبارك من بعيد ومنذ ولادتك لكن أمك لم تترك لي خيار وأنسبتك لرجل آخر وما منعني عنك إلا ما لمسته من معاملته الحسنة لك وحرصه على توفير ما يلزمك رغم مرضه وكنت أيضًا أتبعه من وقت لآخر دون ملاحظته لي وبذلك عرفت جميع أخباركم دون تعب.

أنا حتى لم أشعر بالأسى لتطاولك عليّ، انك لم تكن تعلم بصلتي بك.

علق خالد:

• كم هي قاسية هذه الحياة التي نعيشها ، يا الله ، ماذا عليّ أن أفعل، يأتي رجل غريب وفجأة يقول أنه والدي ويطلب مني أن أصدقه ، أنا لست مغفلًا ، أم أن ما يحدث أمامي أحد مشاهد مسرحية هزلية ، لن أصفق لها ولن يصفق المتفرجون أيضًا لكونها سخيفة، صفيقة، مبتذلة، وضيعة وواهية، لا تروق لي وسأنسحب منها متخليًّا عن دوري كمشاهد وسأكتفي بالصمت، فهو أبلغ ما يحتذى به في تلك اللحظة ، أما أنت وأمي فلكما ما تريدون، لن يمل علي أحد شيئًا وسأعيش كما أحدد لنفسي وكما قلت لكما سابقًا لا أب سوى من أخذت عزاءه بنفسي وسط الناس.

لم يعلق أحد على حديث خالد واكتفى الرجل بتسويه هندامه مصوِّبا نظرة حادّة للأم ثم خرج من الشقة دون أن يستوقفه أحد.

بعد مرور فترة صمت قال خالد:

- فليسامحك الله ، لن نستطع المكوث هنا بهذا المكان بعدما عرف الجيران كل شيء، فلتجهزي نفسك لترك الشقة في أقرب فرصة تحين ، ووداعًا لتلك الذكريات القابعة في أعماق كل شبر في هذا المكان الذي لن يحل محله آخر في قلبي على مر الأيام ولآخر نفس في روحي.

****

" دبي 07 نملـــة "

استيقظت الملكة "تاجيرا" من نوْمِها بكلِّ نشاط وحيوية لتجد جميع من بالقرية يؤدِّي أعماله المكلف بها بكل اتقان وتفان في جمعِ الحبوب وتخزينها، وتأمين مكان المعيشة الذي يأوي كل أفراد المجتمع النملي من خادمات وحراس وجنود وذكور حتى صغار النمل.

طلبت الملكة من حارسها "أبومشغول" بعض الطعام لإعطائها الطاقة اللازمة التي من خلالها يتم متابعة آخر تطورات الوضع وعملية تخزين الطعام لفصل الشتاء، وحتى الاطمئنان على صغار "اليسروع" الذين هم أمل القرية في تزويد أعداد أفرادها وتقوية شوكتهم ضد أي أعداء وأيضًا الدرع الواقي لهم أوقات الحروب.

عندما انتهت الملكة من تناول طعامها خرجت لإلقاء خطابها اليومي على جموع النمل، لتزويدهم بالحماس ومناقشة وتوزيع أعمال اليوم وتصفية الخلافات بين المتخاصمين.

إنها بمثابة الإمبراطورة المُبَجّلَة التي ينحني لها الجميع بإرادتهم وليس رغمًا عنهم، فهي تمثلهم جميعًا، وتحافظ على بيوتهم ولا تأخذ قرارًا بعشوائية بل تستشير المختصين بشئون الحرب وبفضلها أصبحوا في مكانة مرموقة بين جميع طوائف النمل ويحسب الكل لهم ألف حساب.

لكن هذه الأيام الأوضاع غير مستقرة وخصوصًا بعد القضاء على الغابةِ المجاورة لقريتهم.

فمنذ قام البشر بتدميرها وأخْذ أخشابها وقتل ما بها من حيوانات والحراس يعانون الأمَرّيْن لحفظ أمن قريتهم المدفونة تحت التراب

محاولين باستماتة الحفاظ على كينونتهم، لكن المُتَطَفِّلِين يظهروا من وقتٍ لآخر ولابد من أخذ الحيطة وتأمين المستعمرة جيدًا.

حينما وَقَفَت أمامهم قاموا بالتصفيق ترحيبًا بها، لكنها أشارت بيدها ليكفوا عن ذلك، فلا خير من مضيعة الوقت الثمين ولمّا سكت جميع قاطني القرية قالت لهم: أيها النمل أنتم أمل اليوم والغد من دونكم لا نحيا، لن يكون لنا وجود في هذا العالم الغريب والحرب على الأبواب ونحتاج العون من كل فرد منكم.

رفع حكيم المستعمرة يده للسماحِ له بالتعليق ولكن الملكة رفضت، فلا وقت كما قالت وحان وقت العمل وتنظيم طوابير جمع الحبوب والأقوات وإعداد المزيد من الخنادق لحفظها، كما أن الصغار على وشك الخروج من ثباتها ويجب التحرك فورًا.

انصرف الحشد بانتظام كلٌّ لعمله مستعدين لمواجهة الأخطار اليومية، فلا يمر يوم واحد دون خسائر وطبعًا لصغر حجمنا نموت بالمئات في وطأة قدم واحدة.

ظلت الملكة تجوب بداخل المستعمرة بنفسها دون إسناد ذلك لأحد وفي تلك الأثناء تبعها حكيم المستعمرة عاقدًا يده خلف ظهره وقد بدى عليه الانشغال وذلك بفضل انتفاض قرون استشعاره وتأرجحها طوال الوقت.

نظرت إليه الملكة وقالت له مازحة:

- ما بك أيها الحكيم الأطول عمرًا في كل الذكور.

فك الحكيم وضع يده وقام بحك قرونه قائلًا:

• يشغلني أمر في غاية الأهمية يا مولاتي.

• وما هو يا حكيم؟

• عُمّال المستعمرة يهمسون منذ الصباح وأخشى أن يقع ما لا يحمد عقباه.

• ماذا .... أي شيء تقصد ... أفصح عما تعرفه وبسرعة!

• لقد ترامى لسمعي بضع كلمات قد تؤدي إلى حدوث فوضى ومن ثم تحدث الثورة. فالعمال لا يرتاحون وما يقدم لهم من طعام لا يكفي بما يقومون به من مجهود يحفظ لهم طاقتهم.

• أنت تتحدث عن ثورة ... هذه الكلمة لا توجد بقاموس مملكة النمل بل يستخدمها البشر فيما بينهم، فلا تقلق من شيء.

• ولكن يا مولاتي .....

• أرح عقلك وتفكيرك فيما يفيد أيها الحكيم، يبدو عليك الإرهاق فلقد أبطأت في السير وأنا أريد الاطمئنان على كل جزء من قريتنا فهيا أسرع ولا تكن كسولًا .... حتى لا تصبح محط سخرية للنمل لا نريد أن يراك أحد هكذا، فنحن من أنشط مخلوقات الله ونحمده على تكريمه لنا بذلك بأن جعل بداخلنا أهبة العمل وإنجازه أقوى من الإرادة الفولاذية للبشر أنفسهم. ولا يستهان بنا وبجيشنا فالنبي سليمان الحكيم احترم أجدادنا وأبعد جيشه الكبير عن دربهم حماية لهم.

• عذرًا يا مولاتي فالشيب تملكني والموت جفاني كأنني لست أنتمي لمخلوقات الله، حتى السهر الذي يهد الجسد لم ينل مني في

شيء. فلتدعي الله أن يتغمدني برحمته ويقبض روحي لألحق بأقراني في جنات النعيم الأبدي.

• لا تقلل من شأنك هكذا، فأنت ناصحنا وأعقلنا جميعًا بالمستعمرة ولن نتخيل أنفسنا بدونك. نحن نقدرك حق التقدير ولا تقلق لقد أعطيت أوامري من قبل لتحنيط جثمانك بعد موتك ليتذكرك جميع أفراد القرية ويحذون حذوك في الإخلاص لقومك وبني جنسك.

وأثناء حديثهما معًا أقبل أحد قادة الحرس مسرعًا لتبليغ الملكة باقتراب أحد الأعداء من الطيور الجارحة، ويجب الاستعداد لغلق منافذ القرية وتنبيه العمال بالخارج لعمل اللازم.

أعطته الملكة أوامرها بإعادة العمال أولًا بكل السبل المتاحة ثم غلق المنفذ بعدها إذا فشلوا في ذلك يجب إعطاء الأوامر بتشتيت انتباه العدو عن طريق السير اللولبي عبر الجذور القديمة الميتة أو أوراق الشجر الجافة التي اصفر لونها وليموتوا بشرف الدفاع والتضحية من أجل اخوانهم.

أكد لها القائد التنفيذ وبكل دقة منحنيًا نصف انحناءة وهو يردد:

• تحيا مولاتي الملكة لنا

وانصرف مبتعدًا بخطى واثقة ومرحبًا بالموت من أجل وطنه وشعبه.

قال الحكيم مزهوًّا بما رآه:

• نعم الملكات أنت يا مولاتي ، أنت أملنا في الحياة ولولا عزيمتك على المضي قدمًا وتعاملك مع المشكلات بمثابة الجنرال المحنك

والقائد المغوار لدفّنا هنا إلى الأبد لتتغذى الديدان علينا وتحللنا لنندمج مع ما اندثر وهلك من الغابة. أنتِ حقًّا فخر لكل الأجيال القادمة وليبارك لنا الله في عمرك.

ابتسمت الملكة بكل رقة وحنان وهي تلاطف بيديها أحد الصغار قائلة:

• لا داعٍ لكل ذلك المهم أن نتقص أخبار العمال بالخارج وما هي العقبات التي تواجههم الآن، فأنت تعلم على الرغم من شجاعتنا وحبنا للمغامرة من أجل فتات لقمة عيش أو بقايا أوراق شجر متساقطة أو حتى طائر ميت حديثًا إلا أنه يموت منا الآلاف في لحظة عابرة مثل طيف ظهر فجأة ثم اختفى وأنت تعلم أيضًا أن أعمار الذكور قصيرة ونحن نحتاج لكل فرد من أفرادنا حاليًا للخروج من الأزمة.

رد عليها الحكيم ليظهر لها معاونته قائلًا:

• وأنا أيضًا رهن إشارتك يا مولاتي فيما تطلبين وما تسندين إليّ من أعمال.

وبينما هما يتحدثان ويتفقدان كل شبر من المستعمرة النملية جاءها القائد مرة أخرى ولكن هذه المرة تختلف عن سابقتها، جاء مسرعًا نحو الملكة ومنحنيًا وقال:

• مولاتي المعظمة والمبجلة إننا ربحنا معركة الطائر بدون خسائر تذكر، بل أن الحظ كان حليفنا لقد كان ذلك الطائر جريحًا وأنهكه التعب وهد كيانه، فسار يتخبط في طريقه حتى اقترب من جنودنا فسقط وحينما فحصناه وجدناه ينازع الموت، وانتهزنا

اللحظة المناسبة للانقضاض عليه ويتم الآن جلب ما نريده من طعام لتخزينه وبذلك نكون وفرنا على أنفسنا عناء البحث عن أقواتنا طيلة الشهرين التاليين ونستعد لمواجهة الشتاء بصدر تملأه النشوى بالإنتصار.

هنأت الملكة قائد جيشها وأبلغته بفرحها ووعدت قومها بزيادة حصة كل منهم من المخزون إذا سارعوا بجلب الضحية قبل أن تتعفن.

التفتت إلى الحكيم قائلة:

• أترى ؟ أي من مخلوقات الله على أرضه يستفيد من الحي والميت غيرنا ؟ من الذي يعمل طوال الصيف ويخزن قوته حتى يحين الشتاء ؟ من الذي يحفر تحت الأنقاض وداخل الأشجار وتحت التراب لحماية شعبه ورعيته من الأعداء غيرنا؟ من الذي يحذر أقرانه إذا وقع في شرك أو اختنق ببركة ماء سوانا؟

نحن معشر النمل نفخر بأننا مخلوقات ضعيفة جسمانيًا بجانب آخرين عمالقة وجبابرة، لكننا في البأس والشدة والإنجاز أعتى من الجبال الراسخة كالأوتاد. فكم من ضعيفٍ زان قومه وعشيرته بعقلِه وتدبيره وحكمته، وكم من قويٍّ صلب البنيان كان عار على فصيلتِه وإخوانِه لغدرِه بهم، نعم إننا مخلصون، مدافعون، معاونون بعضنا البعض ولم يحدث أن خانت نملة أختها، أو أوشت بها، أو قتلتها ظلمًا، أو اعتدت على عرضها، أو أموالها، أو حتى على إحتكار رأيها؛ فكلنا بمثابة نملة واحدة ولا ننكسر مهما عصف بنا الزمن ومهما كثرت وتطاولت علينا الشدائد.

****

" القاهرة 2030 "

انتهى عمل اليوم، والكل ينظر إلى زميله بنظرة الريب والتوجس أكثر من نظرة الود والتعاطف والتراحم، فلا تحية لأحد، ولا نقاش، ولا خلاف على شيء يذكر.

خرج "عبد الرحيم" من عملِه مثله مثل الكثيرين، يهيم على وجهِه، ينظر دائمًا لأسفل، لعلّه يجد بطريقِه أحد الجنيهات، وهذا من رابع المستحيلات، فحالة البلاد من سوءٍ لأسوأ والجميع يمضي في طريقه على مضض من العيش والضنك، حتى مناجاة الله لم تعد تسري على لسان أحد.

أطرق "عبد الرحيم" يفكر بهدوءٍ وسط الضوضاء العارمة ووسط اللصوص الذين كثرت أعدادهم وقال لنفسه ، ماذا بعد ؟ أيستمر الحال هكذا ؟ إن العالم أجمعه يتخبط في فساده وسطوة ذوي النفوذ ومن يملكون السلاح ، أهكذا هو العالم ؟ ألن تنتهي تلك الفوضى وهؤلاء الملاعين الأنجاس المسيطرون على تجارة الأعضاء، والمخدرات، والنساء هكذا بكل بساطة وعلى مرأى ومسمع من كل الدنيا؟

ليتني مت أو قتلت ، ليتني لم أتزوج ، والمصيبة الكبرى أن لدي ابنة في الثالثة عشر من عمرها، أخشى عليها من نفسي، لا أسمح لها بالخروج نهائيًا ومع إلغاء تعليم الفتيات وجلوسِهنّ بالبيتِ أصبح كل شيء يسير عكس الإتجاه ، إن الذكر منهم لا يكاد تقع عيناه على إحداهن حتى يجن جنونه، ويفقد صوابه كأنه لمح شبحًا أو كائنًا خلاف الآدمية. وبذلك حدثت فجوة كبرى بين المقبول واللامقبول فاندمجوا معًا مكونين شيئًا مبتذلًا، خارجًا عن قوانين الكون.

أتمنى أن تتبدل الأحوال ذات يوم، أن يزول كل ذلك، أن يعم السلام مرة أخرى.

توافدت الأفكار على رأسه وهو يجر قدميه بثقل وقد أنهكه التفكير وعبء ما يحمل في صدره، لكنه أفاق فجأة على مشهد غريب يتوسط الشارع الذي يسكن فيه، فقد وقع بصره على ثلاثة أشخاص يساعدون فتاة على النهوض بعد أن تم الإعتداء عليها، لكن الغريب بالأمر هو اهتمام الناس بها، إن مثل تلك الحوادث من كثرة وقوعها، لم يعد يهتم بها أحد.

على كُلٍّ لم أشغل بالي، فأنا مثلي مثل الكثيرين هنا لن يفيد اهتمامي أو تدخلي بشيء.

وبينما هو يقترب أكثر وأكثر ألقى نظرة أخرى على المشهد قبل صعوده درج بيته، فتراءى له أن تلك الفتاة تشبه ابنته؛ فانتبه جيدًا مرة أخرى ليتيقن هذه المرة أن تلك الفتاة ابنته بلا شك.

ارتعد وجهه وانتفض قلبه بداخله كأنما رأى شبحًا، فهرول إليها حتى كاد أن يسقط وعندما اقترب منها وجثا على ركبتيه، رأى وجهها الملائكي تبدل بوجه وملامح أخرى أقرب لمن يحتضر أو ينازع لدنو أجله فأخذ يمسح على خدها والدموع تتساقط منه بغزاره وفي هذه اللحظة أفاق من نومه بغرفته المضاءة إضاءة خافتة وهو يشهق ويلهث والعرق يملأ وجهه.

جال بنظره في الغرفة ليتأكد أنه كان يحلم وقد اشتد عليه الحلم فتحول لكابوس مرعب ومخيف يختطف ابنته منه.

استغفر "عبد الرحيم" ربه مستعيذًا من هواجس الشيطان، نظر بجواره فإذا بزوجته تغط في النوم ولم تنتبه لما أصابه.

نهض "عبد الرحيم" من سريره ليطمئن على ابنته الوحيدة وعندما خرج من غرفته ونظر لباب غرفة ابنته، وجد غرفتها مضاءة ويخرج صوت ضعيف منها، فاتجه نحوها على الفور وقام بفتح الباب فشاهد ابنته تستذكر دروسها وتقرأ بمادة الدراسات الاجتماعية عن التاريخ الإسلامي، وفتوحات القادة، وازدهار حضارة العرب. قال الأب لابنته مبتسمًا:

• لقد تأخر الوقت ويجب عليك الخلود للنوم حتى تستطيع النهوض مبكرًا لأداء امتحانك المدرسي.

تنهدت الإبنة وقالت:

• لم أنته بعد يا أبي، كما أن تاريخ أمتنا وحضارتها من أروع ما كان، أتصدق يا أبي أننا ملكنا نصف العالم بقوة إرادتنا وعزيمتنا وإيمان قادتنا المنقطع النظير.

أتعلم أنه كانت تقام حروب ضارية بيننا وبين آخرين لمجرد تطاول أحد الملوك أو القادة بالألفاظ على حضارتنا وديننا، تنهدت الفتاة مرة أخرى واستطردت:

• لكن الآن ..... لا أعرف ماذا أقول، فلقد تبدّلت كل أوضاعنا رأسًا على عقب وذهبت أخلاقنا مع الريح تناعي وتندب حظ العرب والإسلام معًا، ليتنا نتخلص من آثامنا جميعها ونحارب أنفسنا الضعيفة التي تداس تحت وطأة المال والأهواء.

ربت الأب على كتف ابنته وقال لها:

• إن الله حارس الكون ومدبر أفلاكه، وندعوه جميعًا أن يفرج كرب الإنسانية المعذبة.

طلب الأب من ابنته أن تغلق كتابها وتتجه إلى سريرها لإراحة جسدها وذهنها من التفكير وترك غيبيات الأمور، تجري كما شاء لها القدر أما ما بيدنا فلنعمل به وله.

قبل "عبد الرحيم" ابنته قبل خروجه من الغرفة وقد ارتاح قلبه بعد أن اطمئن عليها وأغلق الإضاءة، بعد أن ذهب عنه النوم نهائيًا تلك الليلة وجلس يفكر فيما حدث له حتى شقشقة الصباح.

أحقًّا قد يحدث الأمر بين عشيةٍ وضحاها، أخشى على أحبائي من هول ذلك اليوم وأحس بقربه ومشقته وصعوبة تحمله.

أتُرى تهاوى منطق العقل! ذهب الصبر ليحل محله الهوس والجنون ويدب اليأس في نفوس الخليقة. كم أَشتاق لرؤية العدل ونشره بين الناس، كم أتمنى لو تعود النفس البشرية لطهرها وصفائها ولكن ذلك من المحال.

فإبليس لا يكف يده عن اختلاق الفرقة والشتات بين بني البشر حتى تقوم الساعة وإلى أن تأتي فليرحمنا الله على مساوئ أنفسنا المتهالكة.

****

"إلى إبنتي حياة "

"انتهى عمل اليوم، والكل ينظر إلى زميله بنظرة الريب والتوجس أكثر من نظرة الود والتعاطف والتراحم، فلا تحية لأحد

لم أكن أتوقع أن أكتب تلك الرسالة لكِ يا حبيبتي وأنا بكامل قواي العقلية قبل أن يمسني شيئ من الجنون"

عندما قَرَأَت حياة تلك الكلمات تساقط الدمع من عينيها؛ فلقد تذكرت ما مضى من حياتها التي طالما حاولت الهرب منها ، اليوم وبعد كل تلك السنوات تجد هذه الرسالة المحشورة داخل زجاجة بلورية صغيرة الحجم وموضوعة أعلى خزانة غرفة نوم والدتها المغلقة ، التي لم تفكر أن تدخلها من قبل، ولكن بعد رؤية أمها بالمنام تأخذ بيدها وتفتح لها باب الغرفة ثم تختفي فجأة.

للأسف لقد تكرر هذا المنام أكثر من مرة مما جعلها تتخلى عن قسمها وتدخل تلك الغرفة المغلقة لتجد ما لم يخطر لها على بال ويساعدها في كشف الحقيقة.

أكملت حياة قراءة الرسالة التي أصبحت بمثابة قدم وساق الحقيقة كلها.

"لقد أصبح زوجي صعب المراس هذه الفترة، يُقْبِل على شرب جميع أنواع المكيفات ولا يهتم سوى بنفسه ومزاجه الغير معتدل دائمًا ، ذات مرة دخل غرفة نومنا على عجلة من أمره، وقام بفتح خزانة الملابس ثم أزاحها جميعًا أرضًا ليبحث عن نقود قد أكون خبأتها أسفل قطعة من تلك الملابس الملقاة على الأرض لكنه لم يجد شيئًا يا عزيزتي ، أتعرفين لماذا ؟ لأنني وبكل بساطة أخذت الحيطة وأقدمت على حمايتنا وتأمين مستقبلنا فيما بعد فقمت بإخفاء

ما يلزم إذا حدث ما لم أتوقعه لكنه لم يكُفْ وحاول أن يبحث أكثر من مرة وعندما لم يجد شيئًا قرر أن يسلك منحى آخر ، بكل بساطة ووداعة العاشقين كان يدس لي المخدر في شرابي حتى لا أفيق أبدًا فيرتاح مني"

"أتعلمين يا عزيزتي أنه لم يتذكر ولو لمرة واحدة أنك ابنته وأن بيننا شيئًا أقدس من الحياة نفسها ، لا تبكي فأنا أشعر بدمعك المترقرق يتساقط بغزارة ، أنت أغلى وأثمن جوهرة حَصلتُ عليها في حياتي ، تماسكي لتعرفي بقية ما حدث معي حتى لا تطلقي الحكم القاسي عليّ"

"ابتدع والدك نوع آخر وأسلوب جديد للتعامل معي، فقام بشراء دواء خاص بمرضى الزهايمر واستخدمه معي ليقضي عليّ ويتملك كل شيء واستخدمه بانتظام حتى كدت بالفعل أن أنسى بعض الأشياء ، حتى الخادمة نسيت شكلها وملامحها ، ذات مرة دخلت عليّ الغرفة ليلًا لتطمئن على حالي، ولما كنت لا أتذكرها جيدًا ، فزعت وصرخت طلبًا للنجدة، وجِئتِ أنتِ مسرعة إليّ من غرفتك لا تدرين أي جرم وقع ، حاول الجميع تهدأتي وقاموا بإعطائي المخدر حتى خارت قواي ورحت في سباتٍ عميق"

"في ذلك اليوم انقلبت الدنيا رأسًا على عقب، لقد أفقت قبل الموعد المحدد لي في الثانية بعد منتصف الليل وكانت رأسي تدور وأنا أحاول النهوض ، فقد كنت أحتاج إلى كوب من القهوة لأسترد عقلي قليلًا وعندما تلمست طريقي وأسندت جسدي المتهالك وأنا أخطو لأسفل ترامت إلي أذني بعض الكلمات التي أيقظتني على الفور"

"إنه والدك ، يتحدث مع أخرى ويخبرها أن الوقت المحدد اقترب وسوف أتهاوى من تلقاء نفسي وحينها سيؤول إليه كل شيء ، كأنها الصاعقة ضربت برأسي ، ترنحتُ قليلًا لكننى قررت الصمود مهما حدث ، هبطتُ الدرج مسرعة وقمت بمواجهته، فاشتعل الموقف بيننا ، لم يتمالك هو أعصابه وقام بصفعي أكثر من مرة، لأسقط على أرضية الردهة ولكي أستعيد بعض توازني اتكأتُ على المنضدة و كانت تستقر عليها إحدى المزهريات فالتقتطها على الفور وقمت بضرب رأس والدك من الخلف حينما كان يهم بمغادرة المنزل"

سكبت حياة المزيد من الدمع جراء قراءتها تلك الرسالة التى ذكرتها ببعض ما مضى من أحداث جسام كانت السبب فى جعل البيت خاوٍ متهالك كبيت الأشباح ، كئيب المشهد من الداخل والخارج من دون أصحابه، سوى مالكته الشابة التى ترثه الآن.

انتهت تلك الرسالة وبدأت حياة تبحث عن الأخرى فقد كتبت والدتها ملحوظة على ظهر الورقة بأن الرسائل ليست معًا في موضع واحد، فعليها أن تبحث في أرجاء الغرفة حتى تجد ضالتها ولتكن فرصة للتعقل والتدبر فيما تقرأ.

ظلت تبحث وقامت بفتح جميع الخزانات حتى وجدت إحدى عبوات الدواء فقامت بفتحها لتجد رسالة أخرى تكمل بها طريق الحقيقة الغامض فبدأت فى قراءتها على عجلة من أمرها وأمها تقول.

"ضربت رأسه يا عزيزتى، وبكل قوتي وكررت الضربات حتى خرّ صريعًا أمامي والدم يسيل من رأسه، فجلست بجواره برهة من

الوقت لأسترد عقلي مرة أخرى ، حاولت إفاقته ، توسلت إليه أن يعود إليّ مرة أخرى ، لم تفلح جميع محاولاتي فبكل بساطة قد تركني وترك الدنيا التي كانت جل شاغله ، صرختُ من فزعي على مشهده وظللت أصرخ حتى تنبه المقيمين بالبيت وأنتِ أيضًا لتشاهدوا المنظر عن قرب وتشهدوا على اقترافي الجريمة الشنعاء"

"قام الجيران باستدعاء الشرطة وعربة الإسعاف وأنتِ يا عزيزتي تسمرت قدماك بالدرج وظللتى تبكين وقد ضممتى ركبتيكِ لصدرك ، منذ ذلك اليوم وأنا أشعر أني فقدت زوجي وابنتي الوحيدة بيوم واحد ، خرجت وتركتك ، تركتك بمفردك في تلك الليلة المشئومة وترسب في ذهنك المشهد ولم تُجدِ محاولاتي معك على نسيانه"

"عندما دخلت المشفى واكتشفوا كم الدواء المترسب بأوردتي قاموا بإخطار الشرطة بتقرير مفصل عن حالتي وبرأت من تهمتي وكم من سعادة غمرتني عندما وصلني الخبر ، فرحتي بيوم رجوعي إليك يا عزيزتي ، لكنك لم تستقبليني كأم لك ، لم تستقبليني كشخص حتى تعرفتي عليه يومًا ، كانت تلك اللحظة هى الأقسى في حياتي كلها ، تمنيت الموت ، ابنتي الوحيدة تلفظني ، تنكرني ، لا تريدني ، لكنني حاولت معك وبشتى الطرق أن تعود علاقتنا كسابق عهدها ، لم يحدث ذلك ، لم تعطني الفرصة ، حاولت معك أن تعودي لحضن أمك فأنا كنت بحاجة إليك اكثر من حاجتك أنتِ لي"

لم تستطع حياة مواصلة قراءة الرسالة الثانية وظلت تبكي حتى المساء ويومها لم تذق طعامًا ولم يدخل جوفها شيئ ، تعكر مزاجها

عن ذى قبل ، لم تتوقع ما مضى كما تقرأه الآن وبرؤية مغالطة لما ظل بذهنها ، يومها ولأول مرة تدثرت بثوب لأمها وراحت في سبات عميق بسرير أمها الذي لم تقربه منذ الحادثة المفجعة.

في الصباح لم تصبر حياة لتبديل ملابسها أو حتى لأخذ حمام طويل يفيق عقلها بل قامت على الفور باستكمال قراءة رسائلها وأخذت تبحث عن رسالة ثالثة توضح لها المبهم أكثر و أكثر و تناهى لذاكرتها أن أمها كانت دائمًا تردد أمامها أن تحتفظ بمرآة غرفتها فهي تفضلها عن أي شيء آخر، فاتجهت حياة على الفور تجاه المرآة وأخذت تبحث خلفها حتى وجدت الرسالة الأخيرة من أمها.

"قبل أي شيء يا عزيزتي سأوضح لك حبي لتلك المرآة"

"المرآة بصفة عامة هي الروح الثانية للإنسان لأنها وبكل بساطة تذكره بنفسه ، يقف أمامها إما مزهوًّا بنفسه متعجّبًا من أفعاله أو ليكتشف حقيقة أمره وسر حياته، فهي تعتبر ضميره الغائب أو الحاضر حسب قراره الذي يتخذه"

"ولنستكمل معًا بقية الحديث يا عزيزتى ، ولما يئستُ من محاولاتي لإرجاعك إليّ قررتُ أن أتجه وبنفسي وعن قناعة تامة ، في تناول أدوية الزهايمر ، لك أن تتخيلي يا عزيزتي كم كنت محبطة ، بائسة ، تعيسة ، كي أتخذ هذا القرار ولا رجعه فيه لأتناسى واقعي المؤلم ، أرفضه بطريقتي ، أعترض على حقيقته المرة ، لقد عانيت كثيرًا لأثبت وفائي وحبي ، لابنتي الوحيدة ، وقبل أن أتعاطى أي دواء ، وبعدها بفترة بدأت تظهر علي أثر التعاطي ، أتتذكرين حينما كنت بمفردي بمطبخ منزلنا وكدت أن أشعل النار بالبيت كله جراء تركي لنار الموقد مشتعلة دون أن

أتذكر ؟ وبعدها بفترة تذكرت الحدث بمفردي وتعجبت من الأمر ، لا يهم الآن، لقد قمت بكتابة تلك الرسائل ودسستها بأماكن متفرقة من غرفتي علك تبحثين ذات يوم وتمضي الكثير من الوقت بالغرفة فيملأ عبيرك الذي أفتقده تلك المساحة الضيقة التي كنت أعتكف بها حتى دخولي المشفى مرة أخرى وبلا عودة ، فلتسامحيني يا عزيزتي ، فلتغفري لي تصرفي ، مهما حدث ومهما بدر منك ستظلين طفلتي المدللة الغالية للأبد"

والدتك المضطهدة ، دائمًا

أيقنت حياة الآن وبعد مرور تلك السنوات بحب أمها لها ولكنها لا تستطع إخبارها ، لقد توفيت والدتها منذ ما يقرب من العامين ، ليتها عثرت على تلك الرسائل قبل ذلك لكانت الأوضاع تبدلت ، لكانت أحضرت أمها لتمضية ما بقى لها فى حضن ابنتها الناكرة لها ولأفعالها ولهدأت نفسها المعذبة التي تلومها ولسوف تلق باللوم عليها حتى الأبد.

****

" الكهف المهجور "

كان قاسم وعزام على عهدهما دائما فى المراهنة على كل ما هو جديد.

انهما صديقان منذ الطفولة ، لا يرضى غرورهما سوى تحدى الصعاب واظهار روح الشجاعة وتحدى الاخطار ، ولطالما وقعا فى فخ المخاطرة ذلك ، لكن هذة المرة تختلف بالطبع عن باقى المرات السابقةة ، فقد اتفقا على عقد رهان لمن يصل أولا للشجرة العالية التى تقع أمام الكهف المهجور وسط الغابة والجائزة كالعادة زجاجة من أجود أنواع الخمور مع دفع ايجار الغرفة لمدة شهر كامل للفائز .

بدأ التسابق فيما بينهما وكانا فى قمة النشوة وكل منهما يشعر باقتراب النصر والفوز بالجائزة التى تواعدان عليها ، كان قاسم يحاول جاهدا وبكل ما أوتى من قوة الوصول لتلك الشجرة رغم امتلاء جسده عن صديقه عزام ، أما عزام فأطلق ساقيه للريح فيسعفه جسده النحيف ليصل باكرا عن قاسم وينتظره أسفل الشجرة الموعودة المواجهة للكهف المهجور وسط الغابة .

بعد معاناة وصل قاسم بشق الأنفس فوجد عزام وقد اتكأ بظهره أسفل الشجرة متخذا موضع الجلوس وواضعا ساق على الآخرى وينظر اليه بفخر واعتزاز لفوزه مرة تلو الأخرى على رفيقه بينما لم ينبس قاسم ببنت شفة واقترب وهو يلهث من فرط تعبه وارتمى بجوار رفيق دربه ممددا على الحشائش .

بعد أن ارتاح قاسم قليلا بدأ حديثه قائلا : أتعلم يا عزام أننى رغم معرفتى المسبقة بفوزك الا أننى أصر مرة تلو الأخرى على عقد الرهانات لعلى أفوز عليك يوما ما .

قهقه عزام بصوت عال وردد قائلا:

• أنت تحلم يا صديقى فأنا أكثر ذكاء وحنكة منك ، انك أقرب الناس حقا الى لكنك لا تضاهينى فطنة .

ابتسم قاسم وقال :

• لا بأس ، أنت مغرور يا عزام وسوف يوصلك غرورك هذا الى نهايتك يوما ما .

• أنت محق فسوف يوصلنى للفوز مرة تلو الاخرى عليك وتدفع لى ايجار الغرفة وتشترى لى المزيد من زجاجات الخمر الفاخرة .

• أنا أتحدث بجدية ، أنت مغرور أنسيت ذلك الرجل فى الحانة الذى كاد أن يشج رأسك لولا تدخلى لفض الشجار .أنسيت .....

• كفى يا قاسم تذكرنى دائما بما تفعله لى وبما تزيح عنى من أخطار ، شكرا لك ولكم قلت لك لا تتدخل ولا تعرض نفسك للخطر من أجلى .

• كيف لا أعرض نفسى للأخطار من أجلك أنت صديقى ، و رفيق دربى ونشأنا معا على الخير والشر .

• حسنا هل سنظل طوال النهار هكذا وسط الغابة الموحشة تلك أم ماذا ؟

• لا أعرف ليس لدى أى أفكار ، كما أننى لا أريد العودة الى البلدة الآن ، فلنظل قليلا ثم نعيد أدراجنا .

• لدى فكرة رائعة ستجدد النشوة والاثارة وروح التحدى لديك

• ما هى ؟

نظر عزام الى الكهف ثم الى رفيقه ، ثم الى الكهف مرة أخرى فرد عليه قاسم مسرعا :

• لا تفكر حتى فى ذلك انها النهاية ، أجننت ؟ أم ماذا ؟

• بل قل انك جبان ، ترقد طول اليوم كالدجاجة على البيض ، لا تريد النهوض حتى العمل تؤديه متكاسلا ، ومتخاذلا ... أما أنا فلن أعود الا اذا دخلت لأستكشف ما بداخل هذا الكهف المظلم

• كفاك غرورا يا عزام ، فلتقصى تلك الفكرة الغبية بعيدا عن رأسك وأفكارك الغوغاء

• وأنا اتخذت القرار بالدخول واستكشافه أما انت فالحرية لك ، فلتختار اما مرافقتى أو لتعود للقرية لتكمل يومك نائما وممددا على أرضية الغرفة بعد تناولك كل أطعمة القرية وشرابها .

• اعقل ما يدور بخلدك أيها الغبى الشقى ، ألا تعلم أن كبار السن بقريتنا يحذرون الجميع مرارا وتكرارا من الاقتراب من هذا الكهف الملعون وأنهم أيضا يرددون أن من يدخله لا يخرج منه ثانية ، ألا تعلم ....

• كفاك تحذيرا لى يا قاسم وهؤلاء الذين ذكرتهم ما هم الا مجموعة من العجائز لا يفقهون شيئا ، لا يدركون كنه الحياة ولا المغامرة

فى سبيل تحقيق أهدافنا والوصول الى ما نصبو اليه ، انهم مجموعة من الحمقى استسلموا لضربات الحياة فى حلبة المصارعة معها ، وقعوا من الضربة الاولى ولم يقاوموا حتى اخر نفس لهم . أما انا فلن أستسلم حتى أموت أو أكتشف ذاتى المختبة فى أغوار الزمن . وأنا ذكرتك سالفا لك حرية اتخاذ القرار معى والآن .

• حسنا يا عزام سوف أرافقك ، لن أتركك تواجه مصيرك وحدك فى هذا المكان الموحش ، مع أننى تدور برأسى كل الهواجس ويختلجنى شعور بأن تلك نهايتنا معا ، وليرعانا راعى الأرض والسماء .

• أنت حقا ونعم الرفيق ، هيا بنا طالما عقدنا العزم على تلك المخاطرة وكما قلت لك يجب على المرء المخاطرة أحيانا بكل ما يملك للوصول الى راحة ذاتة الأبدية واشباع رغبة ملحة تواجهه

اتجه الاثنان معا ناحية الكهف المظلم يحاول كل منهما أن يهدأ من روع نفسه المضطربة بداخله ، ينظران من وقت لآخر للطريق ثم للكهف وأحيانا يتواجهان بالنظرات.

صعد عزام التلة أولا وخلفه قاسم ببطء شديد حرصا على سلامة جسده الممتلىء ، مع بعض كلمات السباب المتطايرة من فم عزام تأنيبا له وليحثه على اسراع الخطى حتى يلحقا أشعة الشمس ويدركا الكهف قبل الاظلام .

مضت مدة قصيرة وبعدها وصل الاثنان ليجدا نفسيهما بمواجهة مدخل الكهف .

تسمرت قدم قاسم على مدخله ، بينما مضى عزام للدخول واستكشاف ما بداخله وارضاء غرور نفسه . اضطر قاسم للحاق برفيقه عندما كاد أن يختفى عن ناظره فى ظلام الكهف الدامس .

كان عزام يتقدم بخطى واثقة مع كثير من الحذر والريبة تحسبا لوقوع شىء ما أما قاسم فكان يجر قدميه كما لو أنه سلحفاه أنهكها السير حتى تصل لشاطىء البحر ، وقف عزام ليتفحص الكهف مع قليل من الضوء المتسلل اليه من الشقوق العليا ، وجد شلالا من المياة الجارية تسقط بداخله ، يجاوره أعشاب وبعض الفطريات كبيرة الحجم ، كما لمح بعض الجماجم لحيوانات وطيور نافقة ،انه كهف يشبه الساحة الكبيرة لأى مدينة ، يتميز باتساعه ويقدر بمائة قدم طولاً وكذلك عرضاً ، لكن ارتفاعه شاهق كما لو أنك تنظر لأحد المبانى شاهقة الارتفاع .

لم يؤثر به المشهد كثيرا ، فقد رأى بحياته وتنقله من قرية لأخرى ما لم يخطر على بال أحد وأثناء انشغاله بتفحص المكان المريب أحس بيد صديقه قاسم توضع على كتفه وهو يرتجف ويردد:

• لقد دخلنا وتحدينا خوفنا ، هيا بنا لنخرج الآن ولنكتفى بهذا القدر اليوم وغدا نأتى لرؤية المزيد .

• أنت جبان كما قلت لك ، ولماذا ترتجف هكذا

• ما ... ماذا ، أنا لا أرتجف ولا أخشى شيئا قط ، فقط هدنى الاجهاد وأحتاج الى الطعام لأستعيد طاقتى وعقلى .

ضحك عزام بصوت تردد صداه داخل المكان ، كان كفيلا لتحريك كل ما يسكن هذا الكهف ، فقد خرجت الخفافيش من مخابئها ،

وتحركت الحيات من موضعها وطارت بعض الطيور لأعلى ، هذا المشهد كان كفيلا باطلاق طاقة الرعب الكامنة داخل قاسم ليتمسك بصديقه ويحاول بشتى الطرق اثناءه عما قررا فعله سويا .

لكن عزام منذ وضع قدمه داخل هذا الكهف لن يثنيه أى شىء مهما كان ، وزاد من غروره رهبة صديقه ورفيق دربه وهلعه من مذا الكهف العجيب فأزال يده من على كتفه وأخذ يتجول يمينا ويسارا يتفحص المكان كما لو أنه سيؤجره أو يشتريه ، ولما اطمأن لعدم وجود ما يريبه ردد قائلاً:

• ألم أقل لك أن أهل قريتنا زمرة من المجانين ةالمخرفين طويلى الأجل ، لا يفعلون شيئا سوى تحذير الغير مما لم يروه ، ولم يجربوه يوما بحياتهم .

• ولكنهم أكبر منا عمرا وأكثر منا أيضا حنكة .

• صه ولتصمت أيها الغبى ، أنا لا أخشى أحدا ، ولا يهمنى تحذير أحدا منهم

• لكن يا عزام يجب عليك أن ....

• ماذا ... أنت تفرض علىّ بما يجب أن أفعل ... هزلت ...

• أتسخر منى ، أنت حقا مغرور وسوف أتركك بمفردك لتفعل ما يحلو لك

• فلتذهب ولتريحنى منك ومن جبنك فأنا لا أحتاج لرفقتك بأى مكان .

وبينما يهم قاسم بالانصراف تحرك عزام بخطى ثابتة لاستكشاف المكان أكثر ، زلت قدمه وانشقت الأرض من تحته فهوى بحفرة واسعة تشبه الغرفة وبحجمها أيضا ، صعق قاسم لما حدث وأسرع للاطمئنان على رفيقه فوجده ملقى على ظهره لا يقو على الحراك ، صاح عليه مرة تلو الأخرى لكى يستيقظ دون جدوى ، فقرر أن يهبط لنجدته والعمل على افاقته من هول تلك السقطة داخل الحفرة العميقة ،

حاول قاسم انعاش عزام وافاقته حتى بدأ الأخير فى استرجاع وعيه ، فحمد قاسم ربه على أنه بخير ولم يصبه مكروه فقال له:

- لقد حذرتك ولم تستمع لى ما العمل الآن ؟
- لا تخف لم يصبنى مكروه سأحاول النهوض
- حسنا هيا ، فلتنهض وسأساعدك على الوقوف .
- انتظر قدمى تؤلمنى كثيرا ، لا أستطيع تحمل الألم ، ولا الوقوف عليها
- فلتسترح قليلا ثم نتحرك بعد ذلك .
- أشك بأن قدمى كسرت ، فأنا لا أتحمل الوقوف عليها
- فلتتحمل اذن عواقب أفعالك حتى نخرج من هذا المكلان الملعون ونحمد الرب على عدم وقوع شىء .

وفى أثناء حووارهما معا جذب انتباه عزام ضوء خافت يلمع كالنجم ثم يختفى وهكذا بالتوالى على مقربة من جسد قاسم ، فقال له:

• انظر خلفك يا قاسم ، ما هذا الشىء الذى يلمع فى الظلام ؟

رد عليه صديقه قائلا:

• لا أعلم ، أهذا كنز ما أم مصباح علاء الدين الذى نسمع عنها ؟

• أجننت ؟ أنت معتوة لا وجود لمصابيح سحريه فى واقعنا المؤلم والمحزن هذا ، انتظر فلتساعدنى لاستكشافه .

• مهلا ، أنا أتوجس وأخشى وقوع ما لا يحمد عقباه.

• هاااااا ... مغفل كعادتك ، هذا كنز مدفون منذ القدم من الممكن أن يكون ذهباً ، أو أى شىء آخر ذا نفع لنا

• ولكن .... انتظ ....

لم يكمل كلمته لعزام عندما لمس الأخير الشىء اللامع اختفى فى الحال ليجد نفسه وسط ساحة كبيرة بها رجال ونساء وشيوخ وأطفال لا يشبهون أى شخص عرفه يوما ، بل زاد الطين بللا بأن هؤلاء يرتدون ملابس عجيبة ذات طراز قديم نوعا ما ، جال بخاطره هنا وهناك بين الواقفين ، سار بينهم ، ليتعرف أو يفهم شيئا ، لكنه لم يتوصل لشىء . حتى رفيقه الغبى لم يجده بجواره ، اذن ماذا حدث ، وكيف هذا ، أيعقل أن ؟؟؟ دارت الكثير من الأسئلة برأسه ولم يجد لها اجابة تقنع عقله الصارخ فلى رأسه وأخيرا قرر أن يسأل أحدهم ماذا هناك ؟ ولماذا كل هذا الحشد من البشر ، وما هذه الملابس الرثة التى يرتديها الجميع وفى أى عصر هو ؟

رأى رجلا عجوزا فقرر التوجه اليه والوقوف على قدم الحقيقة ، ولما اقترب منه تعجب العجوز من ملابسه ومن هيأته وقال له:

• هل أنت غريب عن المدينة ؟

قال عزام:

• نعم ، ولكن أين نحن ؟

• ألا تعلم أين أنت يا رجل ؟ أأنت سكران ؟ انها روما بلد الجمال والفنون

• رووو .... رومااا ؟ ولكن كيف هذا ؟

عندما هم العجوز بالانصراف استوقفه قائلا:

• معذرة ولكن فى أى زمن نحن يا سيدى ؟

• ماذا ؟ ألا تسمع عن نحاتى ورسامى روما وفلورنسا يا رجل ؟ أنت فى عصر النهضة الايطالية ، نعتز برجال مثل مايكل أنجلو ، دافينشى ، أنت جاهل أحمق ، أغرب عن وجهى

• مهلا وعذرا سيدى ، فقد ذهب عقلى حقا كما قلت من تناولى الخمر ,أستسمحك عذرا ، ما سبب تجمع هؤلاء ؟

• انهم ينتظرون تنفيذ الحكم بالاعدام على رجل خالف أمر الكنيسة ويدير معملا سريا يقام فيه تجارب علمية مناهضة لكنيستنا ، لذلك حكم عليه البابا بالاعدام أمام العامة لاقترافه هذا الجرم الشنيع

• ماذا ؟؟ أيعتبر العلم لديكم جريمة عقابها الموت ؟ يا لكم من حمقى أغبياء ومجانين

• ماذا تقول ؟ اصمت يا معتوه اذا ترامى الى سمع الحراس ما تلفظه ستكون اول المعدزمين جميعا ، هيا ، هيا من هنا ، أغرب عن وجههى فأنا لا أريد المزيد من القلائل .

كيف يعقل هذا ، أنا أحلم حقا ، ليس هذا بالحقيقى ، ليتنى لم أمس ما تراءى أمامى ، فقد غرنى لمعانه وبريقه وظننته كنزا ، يا لسذاجتى .

أخذ عزام يتجول وهو يتحدث مع نفسه غير عابء بما يدور حوله ، حتى اقترب من منصة الاعدام وأخذ يتفرس فى وجه المحكوم عليه ومساعديه ، وبينما هو كذلك رآه أحد الجنود منفذى الحكم ، فأشار ناحيته الى زميل له ، ونظر الى اخر وصوب اصبعه تجاهه وتوتر الناس فشعر بأنه مهدد ومستهدف منهم ، فقالت له امرأة اهرب وانج بحياتك انهم يريدونك ويقولون أنك مساعد لهذا الفاسق ، الخارج عن ملتنا ، هيا اهرب الآن واركض بأقصى سرعة لك . وقتها أطلق عزام ساقه لعنان الريح وقد عمل الحشد على اخفائه وانفلاته من الحراس ، لكنه لا يعلم الى أى مكان سيتجه ، والى أى مأوى سيلجأ ، ظل يركض ويركض حتى ابتعد عن المدينة والناس ولما هده التعب وقلل من سرعته ، نظر خلفه لم يجد أثر يدل على تتبع أحد له ، وجد نفسه على أطراف المدينة بالقرب من المستنقعات ، اطمأن قلبه قليلا بعد هروبه ونجاته من الحراس واقترب أكثر وأكثر من المستنقع بمياهه الراكدة النتنة ، صوت نقيق الضفادع ، نعيق الغربان من حوله ، فاضطرب قلبه مرة أخرى وأخذ يتساءل ، ألن تنتهى تلك المهزلة ؟ أين أنا ؟ أنجو من مكان مهلك لمكان آخر أكثر هلاكا منه ، ساعدنى يا الهى لأعود

الى قريتى المستكينة مرة أخرى ، وفى أثناء انشغاله بحاله ظهرت له سيده من خلف أحد الاشجار الموجودة بالمستنقع ، سيده عجوز شمطاء ، لها عين واحدة والاخرى مفقوعة ، منظرها قبيح لا يبشر بخير أبدا .

اقتربت منه وأخذت تحوم حوله كالبوم وتشم رائحته وتلمس جسده فبادرها قائلا:

• أهلا بكِ سيدتى الجميلة ، عذرا أنى اقتحمت مكان اقامتك ، فقد طاردنى الجنود ولم أشعر بذاتى الا وانا فى هذ المكان ، آسف سيدتى سأنصرف ولتسامحينى

• أتسخر منى أيها الأحمق

• لم أفعل شيئا ، سيدتى

• سيدتى ... سيدتى يبدو أنك غريب كما أنك لست من هذا الزمن العجيب

• وكيف عرفتى ذلك ؟ من ملابسى كما قال العجوز من قبل ؟ أنا .....

• كف عن التفوة يا غبى والتزم الصمت وهلم بنا من هنا الآن ، فقد يصل الجنود هنا ويقومون بقتلى بسببك ، هيا اتبعنى

تبع عزام السيدة دون أن ينبس ببنت شفة ، على الرغم من هيأتها التى تنذر بالسوء ، لكنه مجبر على اطاعة اوامرها ، فهو لا يعرف أحدا ، كما أنها من الممكن أن تساعده ، حتى اذا كانت سيئة فماذا تفعل ، انها امرأة وأيضا مطاردة مثله من قبل الجنود اذن فعدوهم

واحد ، وليتعاون معها على النجاة بنفسه .كان يحدث نفسه ، كيف لهذه العجوز أن تعيش بمكان كهذا ، ولماذا هى مطاردة أهى أيضا خالفت أمر الكنيسة بانشاء معمل سرى لها ؟ أم ماذا ، أفاق من تفكيره على صوت السيدة وهى تقول له:

• كف عن التفكير بأمرى وأرح عقلك ، فلكل منا ما يهرب لسببه .

لم يستوعب عباراتها ..كيف لها أن تعرف فيما أفكر ، قالها لنفسه ومازال يسير خلفها بتوجس وريبة .

هل هى عرافة تعرف المكنون من الاسرار المدفونة داخل الانفس أم مجرد كلمات تفوهت بها أمامى ؟ واستفاق مرة أخرى وهى تلتفت اليه قائلة :

• ما بالك أيها الغبى ، الشقى ، التعيس ألم تسمعنى ، قلت لك كف عن التفكير بأمرى

ثم قامت بضربة براحة يدها على رأسه لعله يستفيق من هذيانه ثم أكملت حديثها قائلة له:

• اننى ساحرة وأنا مطاردة من الكنيسة بأمر جلب السحر الاسود على المدينة ويريدون قتلى وشنقى ثم رمى جثتى بمياة النهر ليرانى المارة ويتشمتون بى .

فقال لها :

• عذرا سيدتى ، ولكنك بسحرك هذا تستطيعين أن تفعلى ما تريدين

• لديك حق فيما تقوله الآن ، ولكنى بلغت من الكبر عتياً ، ليس لى ولد ولا وريث ، ومطاردة وفضلت البقاء بهذا المكان حتى يأتنى الموت ، وأفضل الموت فى المستنقع عوضا عن مجالسه هؤلاء الذين يتفوهون باسم الدين والرب ، ولا يفعلون شيئا سوى جمع أكبر قدر من الذهب والفضة وعقاب الابرياء وقتل المفكرين والمبدعين ، لطالما ساعدت هؤلاء فى اعمالهم الشيطانية ، وجلبت لهم النصر والمال ، الان يريدون قتلى والتمثيل بى ، بعدما قل نفوذ سحرى وسيطرتى ، لكن لا بأس بعملى فيمكن من خلاله نجاتى ولكن قل لى ماذا حدث معك ؟

ظل عزام يقص عليها ما حدث منذ خروجه من قريته وحتى وصوله اليها ، فقالت له :

• سأساعدك للعودة الى زمنك شريرطة أن تحلق شعر رأسك فأنا بحاجة اليه فى عمل أقتص به لنفسى ولن أؤذيك لأنك كنت تبجلنى وتنادينى بسيدتى طوال الوقت

• وأنا أقدر مساعدتك لى يا سيدتى وأشكرك ولكن هل سيجدى سحرك نفعا أم ماذا أخشى أن يقع شيئا ما يحول دون عودتى لبلدتى مرة أخرى .

• لا تقلق فأنا أحفظ بتعويذة تساعدنى فى تخطى ما بين الأزمان سأستخدمها معك.

• ولكن اسمحى لى بسؤال كيف تساعدينني ولا تستخدمى سحرك فى تخليص نفسك ؟

• هاااه ... لقد مللت من تجاوز الازمان ، كما أننى على الرغم من اختبائى وسط المستنقعات الا أننى فى مدينتى وسط أشجار لطالما عرفتها ووسط طيور لطالما سمعت تنفسها ، وسط أوراق أحفظها عن ظهر قلب ، ألست تستوحش هذا المكان ؟ ألا تريد العودة لبلدتك ؟؟ لماذا ؟ لأنها منبت رأسك بها رفاق دربك ، بها حبك وحزنك وجميع مشاعرك ، أنا مثلك تماما لا أستطيع العيش سوى بزمنى هذا وسط أشباء أألفها وأحفظها جيدا ، ولتسرع يا هذا قبل أن أبدل رأيى وأتركك هنا للأبد .

• حسنا سيدتى ، وآسف لجلب المتاعب لقلبك الكريم وسأنتظر حتى تفرغى من التحضير لسحرك الذى سيقوم بالعمل على عودتى مرة أخرى .

• فلتقبع ها هنا حتى أفرغ منه وأتذكر جيدا ، فلا يستجد شيئا على لأن لم أستعمل هذه التعويذة منذ زمن ولى .

• فليرحمنى الله وليلهمكِ العقل والتذكر حتى لا أضيع للأبد فى هذا المكان والزمان

أخذت العجوز تعد أشياء وقطع وبقايا حيوانات وطيور نافقة وتمزجها بطريقة معينة وتضيف اليها بضع قطرات من مادة خضراء اللون وتتلو عليها تعويذة معينة وعندما اقترب وقت الخلاص طلبت منه أن يحلق رأس شعره ويضعه لها فى اناء ثم طلبت منه أن ينهض ويقف أمامها فى الحال حتى تتلو عليه التعويذة التى ستقوم بارجاعه مرة أخرى .

لم يشعر عزام بنفسه الا وهو واقف بميدان ونفس الحشد السابق الذى رآه وتوغل داخله لكن مع اختلاف هيئة البشر وملابسهم ، تعجب كثيرا وردد فى نفسه يا لهذه العجوز الغبية يبدو أنها لم تفعل شيئا يذكر ، ليتنى لم أصدق حديثها ولم أثق بها

سأل عزام أحد المحتشدين كما حدث سابقا ماذا يحدث وأين أنا فرد عليه أحد الأطفال:

• يا لك من مغفل كبير ، ألا تعرف باريس ، انك فى أرض الانتصارات ، أرض نابليون بونابرت ، قائد الجيوش وسيد الانتصارات على جميع الاعداء.

فبادر رجل كان بجواره قائلا :

• ولماذا يجتمع الناس هنا ؟

نظر اليه الرجل وقال له :

• ان اليوم حكم بالاعدام على سيدة سرقت أحد النبلاء ، فحكم عليها بقطع الرأس وهذا قصاص عادل لها ، ألا ترى ذلك ؟

رد عزام :

• يا لهؤلاء البشر من روما لباريس لحكم الاعدام ذاته ، رغم اختلاف الزمنين والمكانين .ألن يكفوا عن الاحكام الملفقة ضد الفقراء والمعدومين ويتجهوا لمن هم أولى بكشف النقاب عن أفعالهم الشنعاء ، ليتنى لم أغادر بلدتى ، ليتنى لم أمس ذلك الشىء اللامع البراق ، واأسفاه فى تلك اللحظة التى يفكر بها مع نفسه.

أفاق على من يجرونه عنوة ويسبونه ويلعنونه بأقذر الشتائم ويقولون :

• اقتلوه ، اشنقوه ، انه عشيق تلك السافلة المجرمة ، اشنقوة معها الان ، لا تتوانوا عن شنقه معها لتخليص المدينة من القذارة ، هيا ، هيا اشنقوه.

وارتفعت الهتافات والصراخ وهاج الناس لما حدث وصاحوا فرحين عندما اعتلى منصة الشنق مع المزعومة عشيقته التى لم يراها قبل ذلك ولا حتى بخيالاته .

أحس باقتراب أجله عندما قام أحد الجنود بربط وتثبيت يديه خلف ظهره كما قام بتقيد رجليه معا ووضعه على مرتفع من ارض المنصة استعدادا للشنق، ثم تعليق أحد حبال المنصة برقبته بجوار السيدة الهزيلة التى تفرس فى ملامحها عن قرب وأحس بما تعانيه من رهبه وجزع انتظار الموت فى أى لحظة ، رثى لحاله ولحالها وقال وداعا ، فأنا أستحق أكثر من ذلك أنا من جنيت على نفسى بغبائى وتعنتى ومعاندتى لسير الأمور وضرب نصائح الاخرين لى بعرض الحائط ، عندما همّ أحد الرجال بازالة المرتفع الذى يقف عليه لاتمام عملية الشنق ، أحس بيد دافئة تمر على جسده ، صدغه ، شعره فى هذه اللحظة استعاد جزء من عافيته فوجد قاسم أمامه وهو يقول :

• حمدا لله أنك بخير ، لقد زلت قدمك ووقعت وأغشى عليك وأنا أحاول افاقتك منذ قليل ، هيا بنا ولنعود أدراجنا الى قريتنا مرة أخرى.

لم يصدق عزام ما حدث وسأل قاسم:

ماذا ؟ أكنت فى سبات وغشى علىّ ؟ لم أذهب لروما فى العصور الوسطى ولا الى باريس فى القرن الثامن عشر .

رد عليه قاسم ضاحكا:

- أتسافر الى تلك البلاد البعيدة بدونى ، فى دقيقة واحدة وتعود ... هلم نعود من حيث أتينا أنت تحلم يا رفيق دربى ، هيا ، انهض
- ولكن قدمى تؤلمنى ولا أقو على ملامسة الارض أو الوقوف عليها
- اذن فلتسترح قليلا ثم أساعدك لنخرج من هنا
- ماذا تقول ... لقد قلت ذلك لى من قبل
- لا لم يحدث ، لقد أثرت الوقعة على رأسك .. هيا ... لقد كنت تحلم

نظر عزام ليتأكد من الشىء اللامع خلف كتف قاسم فوجده بالفعل فاضطرب وقال لقاسم انظر ، الشىء اللامع هذا رأيته سابقا خلف كتفك مباشرة وقد

وقبل أن يكمل حديثه التفت قاسم لجذبه قبل أن يسمع حديث عزام ليختفى هذه المرة أمام عين عزام وللابد .

،‘

تمت بحمد الله و فضله

،‘

الفهرس

1. غدر ذات ليلة 07
2. جارية موسى 15
3. قراقوش 25
4. طعم الخيانة 31
5. بتاح الحكيم 39
6. خالد ولدي 47
7. دبيب نملة 57
8. القاهرة 2030 63

9. إلى إبنتي حياة

.....

69 .....

10.الكهف المهجور

.....

75 .....

حقوق الطبع و النشر محفوظة